

ريادة التعليم الأهلي في السودان من نكسة كرري إلى نواء الإستقلال

بروفيسور / مكي مدني الطاهر الشبلي



ريادة التعليم الأهلي في السودان

من نكسة كرري إلى لواء الإستقلال

بروفيسور مكي مدني الطاهر الشبلي

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر- السودان

371.0209624 مكي مدني الطاهر الشبلي ، 1950-

م . م . د

ريادة التعليم الأهلي في السودان : من نكسة كرري الي لواء

الإستقلال / مكي مدني الطاهر الشبلي - الخرطوم : م . م .

الطاهر الشبلي ، 2017 .

150 ص ، 24 سم.

ردمك 1-837-0-99942-978

1. التعليم الاهلي - السودان.

2. المدارس الخاصة - السودان.

3. التعليم - تاريخ - السودان .

4. الطاهر ابراهيم الشبلي 1885- 1949

أ. العنوان

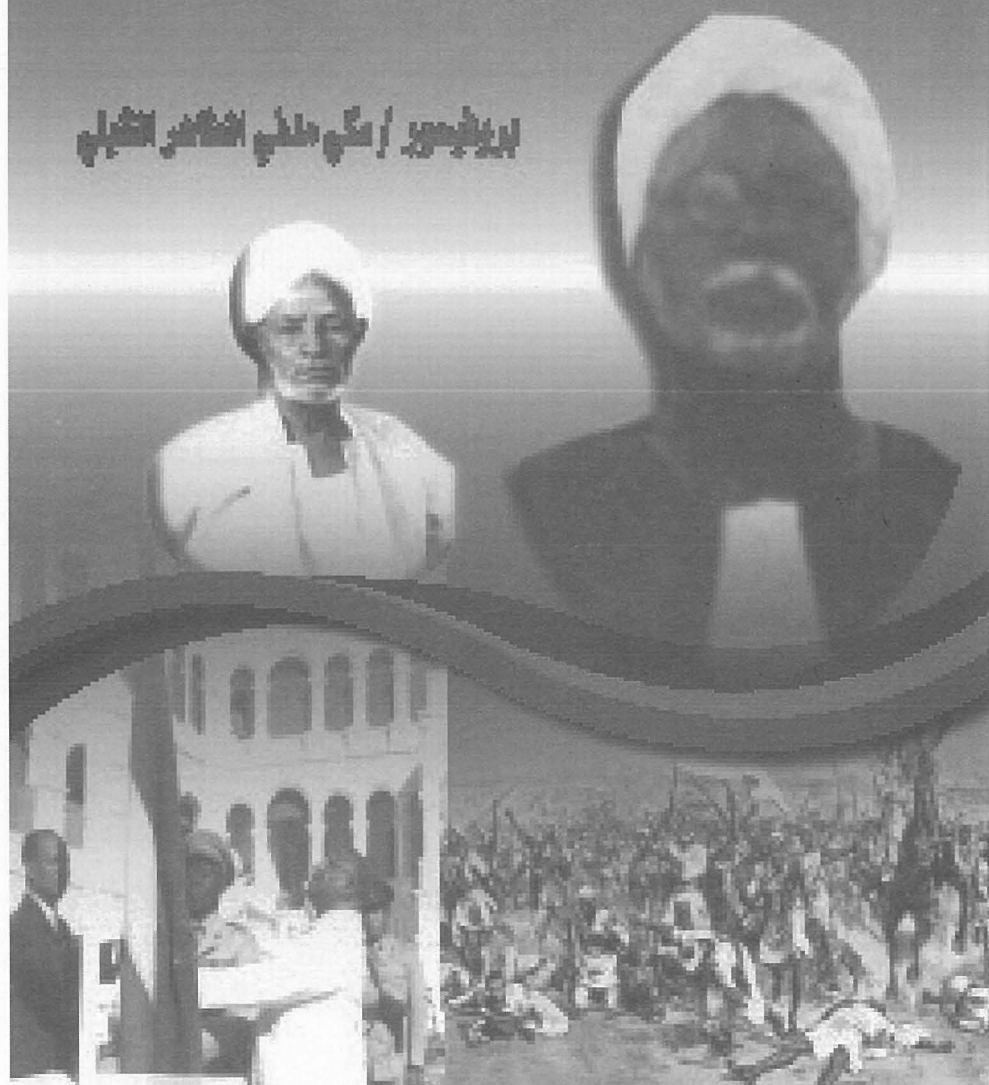
ردمك 1-837-0-99942-978 ISBN:

رقم الايداع 1189 / 2017

ريادة التعليم الأهلي في السودان

من نكسة كرري إلى ثورة الاستقلال

أ. د. محمد إسماعيل الشاذلي



المحتويات

5	الاستهلال
7	إهداء
8	شكر وعرفان
9	توطئة
13	إنهاء الحكم التركي وانتصار أنصار المهدي وتحرير الخرطوم
15	ميلاد ونشأة الشيخ الطاهر الشبلي بحي السيد المكي بأم درمان
20	نسب الشيخ الطاهر الشبلي
24	التعلم في خلوة أم ضواً بان
28	موقعة كرري وشهداء آل الشبلي
32	الدراسة في حلقة الشيخ محمد البدوي
36	الزوجات والأبناء
40	شخصية الشيخ الطاهر الشبلي
48	حملة الشيخ الطاهر الشبلي الانتقامية لشهداء كرري
54	تأسيس مدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية نظامية في السودان عام 1912م
59	إلتحاق الزعيم الأزهري بمدرسة الهداية عام 1913م
62	المفهوم التعليمي والتربوي لمدرسة الهداية
70	التوسل وتوصوف الشيخ الطاهر الشبلي
77	وفاة الشيخ الطاهر الشبلي
78	الزعيم إسماعيل الأزهري يرفع لواء الاستقلال
83	مقابر البكري - السكن البرزخي للشيخ الطاهر الشبلي والأزهري ورموز أم درمان
89	تجفيف مدرسة الهداية
90	إحياء وتعثر مدرسة الهداية
97	مقاربة تاريخية للتعليم في السودان
99	التعليم في السودان قبل تأسيس مدرسة الهداية
124	مآلات التعليم الأهلي بعد قرن ونيف من تأسيسه بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي
134	التعليم الأهلي وتنظيمات المجتمع المدني
142	التعليم الأهلي والتعليم المجتمعي
144	التعليم الأهلي والمدارس المجتمعية
146	نحو مساهمة فاعلة للتعليم الأهلي في تحقيق الجودة التعليمية الشاملة
149	منحة التعليم الأهلي ومحنة التسييس والأدلجة

الإستهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

به الإعانة بدءاً وختماً وصلى الله على سيدنا محمد ذاتاً ووصفاً وإسماً

الحمد لله القائل ومن أصدق من الله قيلاً: وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ¹، والقائل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ².

والصلاة والسلام على رسول الله الذي شدد على حفظ حقوق الناس، وعدم
ابتزازها واستلابها والسطو عليها في الحديث الذي رواه أبو هريرة القائل فيه عليه الصلاة
والسلام: لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَحَاءِ -التي لا قرن
لها- مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ³.

كما قال النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ
عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ⁴.

ولعل من أبرز الحقوق التي حض الإسلام على مراعاتها حقوق العلماء والأقطاب
فهُم سراج البلاد ومنار العباد وقوام الأمة. فمن صميم الحقوق تجاههم الاعتراف
بجميلهم وربط الشباب بسيرتهم وحثهم على السير على دربهم.

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا الْأَحْدَاثُ دَبَّرَهَا دُونَ الشُّيُوخِ تَرَىٰ فِي سَيْرِهَا الْخَلَلَ
إِنَّ الشَّبَابَ لَهُمْ فِي الْأَمْرِ مَعْجَلَةٌ وَلِلشُّيُوخِ أَنْاءٌ تَدْفَعُ الزَّلَلَ

¹ سورة هود: 85

² سورة المائدة: 8

³ أخرجه مسلم في الصحيح والترمذي في سننه

⁴ رواه البخاري

فإن هضم حقوق هؤلاء العلماء الأفذاذ غفلة أو تغافلاً فيه هجر للإنصاف ودعوة
للقطيعة ومجلبة للشقاق بين الناس وإن كان بينهم صلة رحم أو جامع قرابة.

وَلَمْ تَزَلْ قَلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَإِنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ



إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ

إهداء

إلى روح جدي الطاهر الشبلي الذي أحمل اسمه بكل الفخر والاعتزاز، مربّي الأجيال الذي مهّد طريق الهداية لأبناء الوطن، وراّد التعليم الأهلي، وعلمّ الزعيم إسماعيل الأزهري والعديد من رجالات الوطن ليُطهّروا السودان من دنس المستعمر الذي إختلج جزءاً من كبريائه وسعى يائساً لاستمالته واستعطافه.

إلى روح والدي مدني ووالدتي مكارم اللذين رأيت فيهما هبة وعزة جدي الذي لبي نداء ربه قبل مولدي.

إلى زوجتي ثريّاً فتح الرحمن البشير التي تثابر على استقامة بناتي وأبنائي على طريقة أجدادهم.

إلى بناتي وأبنائي نهلة ومحمد ومكارم وفتح الرحمن الذين كتبت لهم ولجيلهم هذا الكتاب علّهم يجدوا فيه مسوغاً للعزة والإقتداء، ومستنهضاً لقيمة الإنصاف.

شكر وعرفان

ولو أنني أوتيت كل بلاغة وأفنيت بحر النطق في النظم والنثر
لما كنت بعد القول إلا مقصراً ومعتزلاً بالعجز عن واجب الشكر



الحمد والشكر لله بدءاً وختماً، والشكر موصولٌ لثلةٍ من أعيان ووجهاء أم درمان الذين درسوا على يد الشيخ الطاهر الشبلي، وكوكبةٍ من جيرانه، ورَهْطٍ من أهلي وعشيرتي الذين عاصروه ونهلوا من علمه وتطبعوا بخلقه واستقاموا على منهجه. ويأتي في عُرَّةِ هؤلاء النفر الكريم والدي الراحل وابنه البكر مدني. وأذكر من تلاميذه مولانا/ دفع الله الحاج يوسف، والدكتور/ كامل شوقي، والدكتور/ بشير البكري. ومن جيرانه أذكر السيد/ عابدون محمد خليل وابنه الأستاذ/ أيوب. ومن أهلي أورد الدكتور/ علم الدين الطاهر الشبلي الذي أمدني بوثائق نادرة احتفظ بها لعشرات السنين، والأستاذ/ السر إسماعيل الباقر، والأستاذ/ محمد ميرغني الباقر. رحم الله من انتقل إلى جواره وأمدَّ في أعمار الذين بقوا أحياء.

وأود أيضاً أن أتقدم بالشكر للذين كتبوا حول ريادة التعليم الأهلي في السودان وغابت عنهم جملة من الحقائق التاريخية البلجاء. فكان لهم فضل حَصِيٍّ على توضيحها دون إفراط أو تفريط، وصلاً لحاضر الأمة بماضيها الباذخ، تطلعاً لمستقبلها الواعد. ذلك أن هذا التعاطي القاصر قد كاد أن يرمي بأصحاب الإرادة والفعل في ريادة التعليم الأهلي في قبضة المجهول، في حين أضفى الهالة والبريق لمن هم أدنى عطاء وأبهر مشاركة في صنع تاريخ الأمة.

كما لا يفوتني إهداء الشكر للدكتورة سعدية محمد شريف ابنعوف لمراجعة النص بمهنية واقتدار جنبتي العديد من الأخطاء التي أتحمل منفرداً ما علق منها. والشكر متصل للمهندس عبد الرازق محمد علي والاستاذة تماضر الشرقاوي لتصميم الكتاب بحرفية ومهارة.

والشكر موصول لمطبعة جامعة العلوم الطبية والتكنولوجيا علي طباعة هذا الكتاب بما لديها من تقنية متطورة.

توطئة

كلمة التاريخ في اللغة العربية من الفعل أرَّخ، ويقال أرَّخ الرسالة أي حدد تاريخها، وأرَّخ الحادث أي فصل تاريخه وحدد وقته، وأرَّخ للقوم أي كتب تاريخ حياتهم وأحداثهم وحضاراتهم. ويمثل التاريخ جملة الأحوال والأحداث التي يمر بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع، كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية. ويُعرّف التاريخ اصطلاحاً بأنه ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية يبحث في تطور الإنسان وسياق الأحداث التي تدور حوله. كما يُعرّف أيضاً بأنه جملة الأحوال والأحداث التي يمر بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع، كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية. وبالتالي فإن التاريخ يمثل تسجيلاً ووصفاً وتحليلاً للأحداث التي جرت في الماضي على أسس علمية محايدة منفصلة عن الذات للوصول إلى حقائق وقواعد تساعد على فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل. ونظراً لهذا الدور المهم الذي يلعبه التاريخ في تطور الأمم، فإن كتابته تتسم بالصعوبة والتعقيد، حيث أن الرصد التاريخي يحتاج لقدر كبير من التجرد لفهم حقائق الماضي وتتبع سوابق الأحداث، ودراسة ظروف السياقات التاريخية وتفسيرها. ذلك أن المنهج التاريخي يحتاج إلى ثقافة واعية تساعد التفسير والتأويل والتنقيح بعيداً عن المؤثرات الأيديولوجية والانتمائية دون إغفال أو تغافل.

وحيث أن العديد من الجهود التوثيقية التي أرخت للتعليم الأهلي في السودان لا تعبر بدقة عن حقيقة ما جرى من أحداث لما اعترأها من عيوب متنوعة، فقد وجب إعادة زيارة هذه النصوص التوثيقية ومقارنتها بمعطيات ملموسة بهدف الوصول للحقيقة بالموضوعية والتجرد اللازمين عن طريق فحص وتحليل الأحداث والوثائق المتصلة بها، وتقديم البدائل المستندة إلى أدلة موثقة ومتماسكة دون إفراط أو تفريط، حيث أن نهضة الأمم لا يمكن تحقيقها إلا في حضور التاريخ الموسوعي والذاكرة السرمدية. ومن هنا تنبع أهمية علم التوثيق كرافد جوهري من روافد علم التاريخ يعنى بحفظ المعلومات وتنسيقها وتبويبها وترتيبها وإعدادها كمادة أولية بهدف حفظ وصيانة الإسهام

الإبداعي الإنساني. ويكتسب التوثيق أهميته من كونه الركيزة المتوجهة التي يعتمد عليها الباحثون في البحث عن الحقيقة، وبالتالي فهو يمثل ذاكرة الأمة اليقظة التي لا يدركها النسيان. ومن ثم فإن التوثيق الأمين يشكل حلقة الوصل المتينة التي تصل حاضر الأمة بماضيها، تطلعاً لمستقبلها الواعد.

ونظراً لهذا الدور الكبير الذي يلعبه التوثيق في التعريف بالحقائق المجردة المتصلة بتاريخ الأمم المتمثل في الأحداث والشخصيات أصحاب الفعل والإرادة الذين ساهموا جوهرياً في صنع تلك الأحداث، فإن عدم الدقة في التعامل معه سيرمي بهؤلاء النفر من الأفاذاذ في قبضة المجهول. وبالمقابل فإن التوثيق الانطباعي المغلوط سيؤدي إلى إضفاء الهالة والبريق وصنع البطولات والإنجازات لمن هم أدنى عطاء وأبته مشاركة في صنع التاريخ.

ومن هنا نبعت فكرة إعداد هذا الكتيب في محاولة مجردة لضبط الجودة في الجهود الشحيحة التي بذلت للتوثيق لتاريخ التعليم في السودان بصفة عامة، والتعليم الأهلي بصفة خاصة، ومدينة أم درمان بصفة أخص¹. ذلك أن هذه الجهود على قلتها قد أغفلت أو تغافلت مساهمات أصيلة وريادية في مجال التعليم قام بها نفر من أميز أبناء السودان، وعلى رأسهم الشيخ الطاهر إبراهيم الشبلي. وحتى لا يكون هذا الجهد التوثيقي كجهد حاطب ليل، فقد استند الطرح الموضوعي المقدم إلى وقائع ومساجلات وشهادات ممن لا يزالون على قيد الحياة. كما ارتكز على تمحيص التفاصيل لمراجع موثقة ارتبطت بتعليم قيادات ومفكرين وشخصيات اعتبارية في السودان لا جدال حول سفر حياتهم الموثق في سيرهم الذاتية التي ظلت على الدوام تحت دائرة الضوء الساطع، وعلى رأسهم الزعيم إسماعيل الأزهري. وكما هو معلوم فإن تاريخ السودان يضم حقتين زمنييتين، إحداهما سرمدية انقضت منذ آلاف السنين، والأخرى معاصرة تواتر المؤرخون المحدثون على رصد أحداثها أو شخوصها إلى يومنا هذا. وعليه فإن وقائع

¹ محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (1820-1956)، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، 2005 ومعتصم أحمد الحاج، التعليم الأهلي في أم درمان، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، الطبعة الثانية، 2007.

الحقبة الثانية يسهل تتبعها واستقصائها دون الحاجة لوسطاء ربما يشوهوا أحداثها بما توحيه لهم نزعاتهم وميولهم الفكرية وحتى مصالحهم الشخصية.

ولعل المتتبع لتاريخ الأمم المتحضرة على نطاق العالم يلحظ القدر اللافت الذي تدين به هذه الأمم من التقدير والعرفان للمتفردين من مواطنيها الأفذاذ الذين لعبوا دوراً محورياً في رسم المعالم البارزة لتلك الدول، وقدموا مساهمات استثنائية أثرت جوهرياً في تكوين الشخصية الاعتبارية لشعوبها، ووضعوا اللبنات الأساسية لاستقلالها الوطني ونهضتها وشموخها. ذلك أن هذه الأمم تحرص على أن تظل سيرة هؤلاء النفر الأفذاذ المتفردين حيّة متوهجة ينداح ألقتها وضياؤها لينير طريق العزة والسؤدد للأجيال المتعاقبة.

وتشير الشواهد الموثقة إلى أن الدور التعليمي الريادي الذي لعبه الشيخ الطاهر الشبلي في رسم معالم السودان الحديث وتكوين الشخصية السودانية بمكوناتها الحالية، يؤهله بامتياز لصدارة أبناء هذا الوطن الذين استحقوا بجدارة أن تحفر الأمة السودانية سيرتهم الزاهية في ذاكرتها السرمدية. وليس أدلّ على ذلك من دوره المشهود في تأسيس مدينة أم درمان، وريادة التعليم الأهلي في السودان بتأسيس مدرسة الهداية في عام 1912م، وتكوين الشخصية السودانية، وتعليم رواد الحركة الوطنية وعلى رأسهم قائد الاستقلال، الزعيم الخالد إسماعيل الأزهري.

يبدأ هذا الكتاب بخلفية تاريخية حول إنهاء الحكم التركي وانتصار أنصار المهدي وتحرير الخرطوم، ومشاركة إبراهيم الشبلي، والد الشيخ الطاهر في هذه المعركة الظافرة. ثم يستعرض الكتاب ميلاد ونشأة الشيخ الطاهر الشبلي في حي السيد المكي بأم درمان القديمة، ويقدم تعريفاً بنسبه وتعليمه، وصلته الوثيقة بالطريقة الإسماعيلية صاحبة الدور البارز في تأسيس أم درمان. وبعد ذلك يورد الكتاب الدروس والعبر من نكسة موقعة كرري التي جرح واستشهد فيها والده وعدد من أفراد أسرته، وأثر ذلك في تكوين شخصية الشيخ الطاهر الشبلي الكارزمية المناهضة للاستعمار الباغضة للمتعاونين معه. ويوضح الكتاب دور نكسة كرري في حملة الشيخ الطاهر الشبلي

الانتقامية لشهادتها القائمة على تعليم أبناء السودانيين بتأسيس مدرسة الهداية في عام 1912م كأول مدرسة أهلية في السودان، والتي تعلّم فيها على يدي الشيخ الطاهر الزعيم إسماعيل الأزهري، قائد استقلال السودان من الاستعمار البريطاني. ثم يقدم الكتاب مقاربة تاريخية للتعليم في السودان قبل وبعد تأسيس مدرسة الهداية بأم درمان عام 1912م. وبعد ذلك يدلف الكتاب لاستعراض المفهوم التربوي والتعليمي لمدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية في البلاد، ودورها في ازكاء الحس الوطني في أبناء السودان، وتخريج قادة متفردين في مختلف المجالات السياسية والتعليمية والعسكرية والرياضية والفنية من أسهموا بجلء في بناء وتنمية السودان، وعلى رأسهم الزعيم إسماعيل الأزهري. ثم يورد الكتاب وفاة الشيخ الطاهر الشبلي وتشيعه في مقابر البكري بأم درمان السكن البرزخي لرموز أم درمان والسودان. وبعد ذلك يتم استعراض مآلات التعليم الأهلي في السودان بعد قرن ونيف من تأسيسه بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي. ويشمل ذلك دور التعليم الأهلي في مجابهة الاستعمار والبناء الوطني، ومواجهة آثار العولمة وتحديات التأميم والخصخصة والتسييس والأدلة. وبعد ذلك يستعرض الكتاب الشراكة بين التعليم الأهلي وتنظيمات المجتمع المدني ودورها في تعزيز التعليم في البلاد وضرورة وقاية هذه الشراكة من طغيان العولمة وهيمنة الحكومة. ثم يتعرض الكتاب للعلاقة بين التعليم الأهلي والتعليم المجتمعي وتأسيس المدارس المجتمعية. ويختتم الكتاب باستعراض دور التعليم الأهلي في تحقيق الجودة التعليمية الشاملة.

إنهاء الحكم التركي وانتصار أنصار المهدي وتحرير الخرطوم

شهدت الفترة 1820-1885م خضوع السودان الحديث للفترة الاستعمارية الأولى نتيجة للغزو التركي المصري الذي أعقب ضعف مملكتي الفونج ودارفور الوطنيتين. ومنذ بواكير الحكم الاستعماري واجهته القبائل السودانية بمختلف ضروب المقاومة مما أثر سلباً على هيبة الحكم. وقد شكلت هذه المقاومة المستمرة دافعاً قوياً للإمام محمد المهدي لتنظيم جيش قوي لمواجهة المستعمرين. وتمكن خلال فترة وجيزة من الحصول على دعم كبير من مختلف القبائل في كافة أنحاء السودان.

وكان من بين المنضمين لجيش المهدي إبراهيم الشبلي والد الشيخ الطاهر في بواكير الثورة المهدية بالجزيرة أبا التي لا تبعد كثيراً عن مسقط رأس إبراهيم الشبلي في ود العباس (شمال مدينة سنار). وبعد انتصار المهدي في موقعة الجزيرة أبا هاجر معه إلى قدير جنوب الأبيض حيث انضم لجيش المهدي الآلاف من مختلف قبائل السودان. وواصل المهدي انتصاراته في كردفان وكون جيشاً قوياً قوامه 60 ألفاً من المقاتلين الأشداء الذين أزكت فيهم الانتصارات روح الثورة ضد الحكم التركي والزحف لإسقاط الخرطوم. وكانت الخرطوم العاصمة السياسية للحكم التركي في السودان خلال الفترة 1821 - 1885م نظراً لموقعها الجغرافي ومزاياها الطبيعية، حيث تقع في ملتقى النيلين الأزرق والأبيض في شكل مثلث أقام فيه الأتراك تحصينات قوية بحفر خندق عميق بعرض 12 متراً يمكن من إحاطة المدينة بالمياه من كل جانب. وقد استغل الإمام محمد المهدي هذه التحصينات بفكره الحربي العالي لتساعد على حصار المدينة وسقوطها وتحرير البلاد من الغزاة. وقام بقفل الطرق البرية والبحرية والتي تربط الخرطوم بالعالم الخارجي. وحاصرها بإحكام بتأمين الطريق الشرقي المؤدي لسواكن والبحر الأحمر. وقفل جنوده البوasl طريق بربر المتمة شمالاً الذي يربط الخرطوم بمصر، وطريق كسلا مصوع الذي يربط الخرطوم بالحبشة. وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية من

حصار الخرطوم بعزل المدينة عن المناطق المجاورة باحتلال أمضواً بان والجريف شرق الجزيرة اسلانج شمالاً، والكلاكلة وأبوسعد جنوباً. أما المرحلة الثالثة فكانت اقتحام المدينة قسراً والاستيلاء عليها. وقاد هذه المرحلة الحاسمة الأمير عبد الرحمن النجومي يدعمه ستين ألف مقاتل من بينهم إبراهيم الشبلي، والد الشيخ الطاهر. وانتشر عشرون ألف مقاتل في مواجهة دفاعات المدينة. وانقسمت القوات إلى قسمين القسم الأول مهمته إبادة جند الحكومة من الخلف والقسم الثاني مهمته شن هجوم مباشر على السراي مقر قيادة غردون. وكان الاقتحام فجر الإثنين 26 يناير 1885م. وعند الضحى انكسرت مقاومة المستعمر وسقطت الخرطوم. وبذلك نجح المهدي ومحاربوه البواسل في تأسيس أول حكم وطني إسلامي في إفريقيا.

ميلاد ونشأة الشيخ الطاهر الشبلي بحي السيد المكي بأم درمان

وُلِدَ الشيخ الطاهر إبراهيم الشبلي بمدينة أم درمان بحي السيد المكي في عام 1885م، وهو ذات العام الذي شهد ميلاد زميل دراسته السيد عبد الرحمن محمد أحمد المهدي بمدينة أم درمان أيضاً. كما أنه ذات العام الذي شهد تحرير الخرطوم على يد الإمام محمد أحمد المهدي. ونشأ الشيخ الطاهر في مدينة أم درمان بحي السيد المكي الذي أسسه السيد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي وترعرع فيه متنسماً عبر الحرية في فجر الثورة المهدية التي شارك والده إبراهيم الشبلي في معاركها الظافرة، حيث اشترك في حصار الخرطوم وسقوطها عام 1885م، وتأسيس الدولة الوحيدة المستقلة في إفريقيا القرن التاسع عشر.

وما يجدر ذكره أن سكان مدينة أم درمان عند ميلاد الشيخ الطاهر الشبلي فيها في عام 1885م لم يتجاوز 20 ألف نسمة (أي أقل من سعة دار الرياضة بأم درمان). ويؤكد ذلك أن إبراهيم والد الشيخ الطاهر الشبلي من أوائل مؤسسي مدينة أم درمان التاريخية باعتباره من أوائل العشرين ألف مواطن سوداني الذين حلوا بها. ويجدر بالذكر أن الشيخ إبراهيم الشبلي قد سكن أيضاً في حي السيد المكي العريق، الذي شهد لاحقاً تشييد مدرسة الهداية الأولية بواسطة ابنه الشيخ الطاهر الشبلي كأول مدرسة أهلية في مدينة أم درمان، الذي كان أيضاً وثيق الصلة بالسيد ميرغني بن الشيخ إسماعيل الولي. وقد أدت هذه العلاقة الحميمة إلى مصاهرته لهذه الأسرة العريقة بزواج الشيخ الطاهر من حفيدة الشيخ إسماعيل الولي آمنة نوري، وإلى زواج ابن الشيخ الطاهر الشبلي البكر (مدني) من حفيدة الشيخ إسماعيل الولي، مكارم محمد الباقر الشيخ إسماعيل الولي.

وبالتدريج أخذ سكان مدينة أم درمان في التزايد إلى أن بلغ عددهم نحو 400 ألف نسمة في عام 1885م نتيجة لتواتر هجرة أتباع الإمام المهدي لهذه البقعة التاريخية. وتجدر الإشارة إلى أن العدد الحالي لسكان أم درمان في عام 2017 يبلغ أكثر من ثلاثة ملايين نسمة.

وتشير الدلائل التاريخية إلى أن السيد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي، مؤسس حي السيد المكي العريق بأم درمان، قد شارك مع أبنائه وإخوته في حصار مدينة الأبيض وموقعة شيكان التي أعقبها سقوط مدينة الأبيض في عام 1883م تحت قيادة الإمام محمد أحمد المهدي. ويجدر بالذكر أن عبد الله بن إسماعيل - والد الشيخ إسماعيل الولي الذي ينحدر من قبيلة البديرية الدهمشية - قد نزح من قرية منصوركتي بمنطقة الدبة في شمال السودان لمدينة الأبيض حاضرة كردفان. ونسبه هو الشيخ إسماعيل الولي بن عبد الله بن إسماعيل بن عبدالرحيم بابا بن الحاج حمد بن الفقيه بشارة الغرباوي بن الفقيه على بن برسي بن محمد بن كبش بن حنين بن الملك ناصر بن صلاح بن موسى (الملقب بمسرة الكبير) بن محمد بن صلاح بن محمد بن دهمش بن بدير بن سرة بن سرار (حد الكل) بن كردم (الذي أخذت تسمت كردفان منه) بن أبي الديس بن بضاعة بن عبد الله بن حرقان بن أحمد الحجازي بن محمد اليميني بن إبراهيم الهاشمي (الشهير بجدة جعل) بن سعيد بن السيد الفضل بن السيد عبد الله الخبر بن السيد العباس (عم النبي صلى الله عليه وسلم) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان¹.

وتقول الروايات أن والد الشيخ إسماعيل الولي - السيدة ملكة الدار بنت ساتي سلمان - كانت حبلى به عندما رحلت مع زوجها من منصوركتي ووضعت في الأبيض. ونشأ نشأة دينية مكنته من حفظ القرآن الكريم وهو دون الثامنة من عمره. والمرجح أنه قد تلقى علومه الشرعية من والده بما له من تراث شرعي متصل من جده بشارة، تلميذ السيد إبراهيم البولاد. وكذلك تلقى العلم من أهله فقهاء البيلاب وعلماء الركابية الدناقلة الذين هاجروا معهم إلى الأبيض وقتها مثل الشيخ عربي مكاوي².

¹ دار السادة الأشراف <http://alashraf.montadamoslim.com/t1235-topic>
² ويكيبيديا الموسوعة الحرة، الشيخ إسماعيل الولي.

بدأ الشيخ إسماعيل في تعليم أبناء المسلمين القرآن والفقه وهو دون العشرين من عمره بمدينة الأبيض. وعمل على نشر الإسلام في جبال النوبة بمحافظة الدلنج الحالية. وهو أول من أسس خلوة للقرآن الكريم ومسجد بجبال النوبة.

تلقى الشيخ إسماعيل الولي إجازته الصوفية على يد الشريف المكي الحسيني محمد عثمان الميرغني المشتهر بالختم (1208-1268 هـ)، عند زيارته لشمال كردفان في عام 1816م على أرجح التقدير. ثم انتقل الشيخ خليفة الختم على شمال كردفان. وقد قام الشيخ إسماعيل الولي بتوفيق الله ثم بجهده المثابر وهمة العالية بنشر الطريقة الختمية في إقليم كردفان. ومكث في الطريقة الختمية سبعة أشهر فقط، وبعدها من الله عليه بالفتح وأحله في ذروة السطح وصار من أكابر الرجال فجاءه الإذن بتأسيس الطريقة الإسماعيلية. فقام بتأسيسها في العشر الأواخر من رمضان المبارك عام 1241هـ الموافق 1821م.

وبعد الانتصار الساحق الذي حققه المهدي على قوات المستعمر تحرك السيد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي حاملاً معه فكر الطريقة الإسماعيلية مع حملة المهدي حتى مشارف الخرطوم لاستكمال حملات التحرير. وشارك السيد المكي في حصار الخرطوم إلى أن سقطت على أيدي أنصار المهدي في يناير عام 1885م. وكان السد المكي قد أسس مسجده في خاصرة مدينة أم درمان في واحد من أعرق أحيائها القديمة، ألا وهو حي السيد المكي. ويعتبر المسجد من أوائل المساجد في تلك المدينة التاريخية. وكما هو معلوم فإن مسجد حي السيد المكي الذي يقع بالقرب من زاوية الطريقة الإسماعيلية كان أول مسجد تعقد فيه صلاة الجمعة في مدينة أم درمان¹. وقد تزامن تأسيس المسجد مع سقوط طابية أم درمان الذي حدث قبل شهرين من سقوط الخرطوم. ويعتبر حي السيد المكي من أول وأعرق أحياء مدينة أم درمان¹، حيث يحده جغرافياً من الشمال حي ود أورو، ومن الجنوب منطقة الشهداء ومن الغرب حي الركابية ومن

¹وكيبيديا الموسوعة الحرة، أحياء مدينة أم درمان.

الشرق حي بيت المال. وكان من بين المؤسسين الأوائل لحي السيد المكي، وبالتالي مدينة أم درمان، السيد سيد أحمد الأزهري وهو جد الزعيم إسماعيل الأزهري، والسيد مصطفى البكري، والسيد ميرغني والسيد الباقر، أبناء الشيخ إسماعيل الولي الذين قَدِمُوا إلى أم درمان مع السيد المكي كزعماء للطريقة الإسماعيلية برفقة الإمام محمد أحمد المهدي. كما كان من أوائل الذين سكنوا في هذا الحي إبراهيم الشبلي، حيث وُلِدَ له فيه ابنه الطاهر. وبادر في السكن في حي السيد المكي أيضاً أسرة بلال رمضان، التي تزوج منها الشيخ الطاهر الشبلي لاحقاً زوجته الثانية عائشة بلال رمضان.

وسكن حي السيد المكي آل الأميرلاي عبد الله بك خليل، ورجل الأعمال الراحل مصطفى كيشو، كما يمثل الحي أنموذجاً راقياً في التعايش السلمي بين الأديان حيث قطنه آل جرجس وهم من الأقباط الذين سكنوا أم درمان منذ عهد الخليفة عبد الله. كما استضاف هذا الحي ذرية الأستاذ محمد عثمان الختم بدار السيد محمد المكي وقتئذٍ حين كان للخليفة عبد الله خلاف مع علماء السودان وبيوت الدين في مسائل فقه الدولة والسياسة. كما قطن الحي العتيق كثير من الأسر التي هاجرت من شتى بقاع السودان في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كأسرة الجبلاب وآل الأشقر وآل عبدون محمد خليل وآل محمود مشي وآل محمود الرشيد وآل الخليفة هاشم. ويتوسط الحي العريق ميدان الحديد الذي دفن به من أجداد الأم درمانيين الشجعان ممن لم تسعفهم جراحهم أن يتحرفوا للقتال بعد معركة كرري أو ينحازوا إلى فئة¹.

ويجدر بالذكر أن الطريقة الإسماعيلية التي وضع قواعدها العارف بالله الشيخ إسماعيل الولي المولود عام 1787م، وتعرف بأنها الطريقة الصوفية السودانية الوحيدة منشأً وقيادةً. وقد شهد هذا الحي أيضاً وفاة السيد مصطفى البكري ابن الشيخ إسماعيل الولي في عهد الخليفة عبد الله الذي وجّه بدفنه في تلك البقعة شمال أم درمان في عام 1889م، والتي أصبحت لاحقاً تعرف بمقابر البكري ممثلة أول مقابر

² حسام الدين حسن عباس أبو، حي السيد المكي - الأصالة والتاريخ .

لدفن موتى المسلمين في مدينة أم درمان.

ومن ناحية أخرى فقد استضاف حي السيد المكي العديد من أبناء الأسر الكبيرة والعريقة في السودان. ففي فترة الخليفة عبد الله احتضن السيد المكي عدداً من شباب المراغة وآل المهدي في داره بحي السيد المكي، حيث ظلوا فيها تحت وصايته حتى أعيد احتلال السودان في فترة الحكم الثنائي عام 1898م. وقد أقدم السيد المكي على هذه الخطوة الشجاعة رغم الحرج الكبير الذي سببه وجود هؤلاء الأعيان معه لدى الخليفة عبد الله، حيث كان السيد المكي يرعاهم ويحسن معاملتهم ويعلمهم مع أولاده¹.

وعندما انتهت دولة المهدي وقامت دولة الحكم الثنائي في عام 1898م طلب الإنجليز من رجال القبائل ورجال الدين الأقوياء الرجوع إلى مناطقهم الأصلية خوفاً من تأثير نفوذهم القوي في زعزعة حكم المستعمر. وتحت الضغط الشديد من الإنجليز اضطر السيد المكي وعددٌ كبيرٌ من أفراد عائلته واتباعه للسفر للأبيض عام 1902م. وأقام في حي الدناقلة. وهناك قام ببناء قبة والده الشيخ إسماعيل الولي في عام 1903م. ومن ثم صار حي القبة أهم المراكز الدينية والاجتماعية في مدينة الأبيض. وبمرور الزمن صار الحي الذي شيدت فيه قبة الشيخ إسماعيل الولي يعرف بحي القبة.

¹ موقع الطريقة الإسماعيلية على الإنترنت .



لافتة مسجد السيد المكي العتيق الذي أسسه عام 1884م

نسب الشيخ الطاهر الشبلي

امثالاً لقول الله تعالى في محكم تنزيله ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾¹، هو الطاهر إبراهيم الشبلي دفع الله شاع الدين عركي عدلان سليمان عبدالرحمن عبدالله عبدالله حماد صالح مسرة جماعة مسعود أحمد كليب محمد صارده محمد عجم زيد محمد محسي بن الملك سعد بن الملك جامع بن الملك حسن بن الملك أحمد بن الملك عامر بن عبد الكريم بن عبدالله بن يعقوب بن جابر بن سعد بن موسى بن أويس بن جامع سكر بن سالم بن عبدالرحمن بن علي بن سليمان بن محمد بن زيد بن عمارة بن حارثة بن عبادة بن أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي رضي الله عنهم وأرضاهم. ففي عام 1505م نجح تحالف القبائل العربية، وخاصة قبيلة جهينة، مع قبائل الفونج المسلمة في إسقاط الدولة النوبية المسيحية التي كانت تحكم السودان. ومنذ ذلك الوقت بدأ معظم أحفاد أبي ابن كعب في الرحيل عن مواطن أخواهم النوبيين في الشمال في اتجاه أواسط السودان، وانقطعت صلتهم برطانة أخواهم المحس.

وينحدر الشيخ الطاهر الشبلي من قبيلة الصواردة، الذين ينسبون لجدهم صارده المنتمي لقبيلة المحس. وصارده هو اسم عربي يعني نافذ الرأي وقوي الإرادة². وينقسم المحس بصورة عامة إلى محس الشمال الذين يتكلمون اللغة النوبية بجانب العربية، ومحس الوسط الذين هاجروا في القرن الخامس عشر الميلادي إلى وسط السودان ويتكلمون العربية فقط. ومحس الوسط هم أبناء محمد (عجم) بن زايد بن محمد محس. وقد أنجب تسعة أبناء هم فروع محس الوسط وانتشر بعضهم في الشمال وهم: صارده (جد الصواردة) وسادر (جد السدارنة) وعبودي (جد العبودية) وشرف الدين (جد المشيرفية) وسعد الله (جد السعدلاب) وزايد (جد الزيادية) ومزاد أبو شامة (جد الحمدلاب) وشعبان (جد الشعباناب) ومحمد كباني (جد الكبانية). وقد اشتهر

¹سورة الحجرات: 13.

²ويكي إن، موضوعات عامة متنوعة، معاني الاسماء والكلمات، معنى اسم صارده <http://wikiin.com/post/12337>

المحس بنشر العلم الإسلامي والقرآن الكريم وبالتسامح وروح التعايش وحسن الجوار وقد كان شيوخهم أشهر علماء دولة الفونج أول مملكة إسلامية في السودان ومنهم: إدريس ود الأرباب وأرباب العقائد الحشن، وخوجلي أبو الجاز، وإمام أبو جنزير.

والصوارة من محس الوسط الذين تصاهروا مع القبائل العربية الأخرى في شمال وأواسط السودان، خاصة الجعليين في منطقة شندي، وقد بلغ هذا التصاهر درجة جعلت الكثيرين ينسبون الصوارة لقبيلة الجعليين. ولعل ما عضد ذلك الفهم الذائع الصيت أن الصوارة يتمتعون مقارنة ببقية أفخاذ قبيلة المحس بشخصيتهم الاعتبارية الخاصة التي أثرت وتأثرت بمجاورتهم ومصاهرتهم للجعليين. وتشير الدلائل إلى أن محس الوسط قد هاجروا لمختلف أنحاء السودان حيث انتقلوا من شمال السودان إلى منطقة شندي، خاصة جزيرة سارديّة، التي تعتبر من أشهر الجزر في تلك المنطقة. وقد ورد أن هذه الجزيرة عمّرها الصوارة، حيث أخذت اسمهم «صارديّة»، قبل أن تحوّل بمرور الزمن إلى «سارديّة». وقد اشتهرت هذه الجزيرة بالعلم والتجارة والزراعة. كما انتشر الصوارة حول منطقة شندي في الجوهر وحجر العسل وحجر الطير وأم الطيور والقلعة والمسيكتاب. ويوجد الصوارة أيضاً في محلية ودحامد بمحافظة المتمة في قرية حجر ود سالم وأبو رغيوة وطابت وجزيرة وكجوج وأمبتكول وبرتول. وينسب الصوارة في منطقة المتمة لجدهم الأكبر سالم، الذي سمي عليه حجر ود سالم، وكان أول من سكن المنطقة منذ القرن السادس عشر. وما يجدر ذكره أن الملك سعد أبو دبوس أول ملوك الجعليين في المنطقة قد بدأت ولايته في أواخر القرن السادس عشر وامتدت إلى أوائل القرن السابع عشر. ويوجد في حجر ود سالم القبة المشهورة بالمنطقة لصاحبها العارف بالله الشيخ خليل ود علي الصاردي، الذي كان - أيضاً - من مؤسسي هذه المنطقة. وهو خال العارف بالله الشيخ حسن ود حسونة الذي ولد بالجزيرة كجوج، وما زال مكان ميلاده معروفاً ويسمى البيان، ويقع على بعد خمسة كيلو مترات شرق حجر ود سالم. وما زال قبر السيدة فاطمة بت علي الصاردي والدة الشيخ حسن ود حسونه (أخت الشيخ خليل ود علي الصاردي) موجوداً في مقابر الشيخ خليل الصاردي،

ويقوم الناس بزيارته. ويعتبر الشيخ خليل الصاردي من أقدم الأولياء الصالحين بريفي ود حامد.

وبمرور الزمن واصل الصوارة انتشارهم في وسط السودان بدافع العلم والتجارة. ولعل أبرز شاهد على تواجد الصوارة ودورهم التأسيسي في منطقة الخرطوم، صريح الشيخ أبو جنزير (الشيخ خليل بن الشيخ مجلي) الذي لازال قابلاً في قلب مدينة الخرطوم القديمة، والذي ينسبه العديد من المؤرخين إلى قبيلة الصوارة.

وأسس الصوارة مدينة الحلفايا بالخرطوم بحري، حيث توجد فيها أقدم مقابر في المدينة وتحمل اسم الصوارة، لتقف شاهداً على تواجدهم التأسيسي والريادي في تلك البقعة. وكما ورد في الوثائق التاريخية أن الحلفايا تعتبر من أقدم مدن السودان واختارتها قبيلة العبدلاب عاصمة لهم وفيها أسست دولة العبدلاب في عام 1747م ومن ثم جرى عليها اسم حلفاية الملوك كما أورد صاحب الطبقات ود ضيف الله¹.

وبعد هذا التاريخ تحولت العاصمة إلى سنار وبقت الحلفايا كعاصمة ولائية. بيد أن الصوارة نزحوا من الحلفايا لاحقاً إلى منطقة الجزيرة بفعل حملات الدفتردار الانتقامية في عام 1824م، عقب حرقهم للحامية التركية في الحلفايا تزامناً مع حرق الملك عمر لإسماعيل باشا وهروبه إلى أرض البطانة ثم إلى الحبشة.

وقد نتج عن هجرة الصوارة في أعقاب حملة الدفتردار الانتقامية انتشارهم في منطقة الجزيرة (الربوة، وسنجة، وسنار) التي توطن فيها أسلاف الشيخ الطاهر إبراهيم الشبلي بما فيهم والده وعمه الطاهر الشبلي الذي تزوج ابنته زينب لاحقاً في ود العباس (حلة غرسلي) في عام 1916م. كما سكن في حي الصوارة بمدينة سنجة شقيقه وعديله الطيب إبراهيم الشبلي، الذي تزوج ابنة عمه أسماء الطاهر الشبلي. وسكن في قرية الصوارة بسنجة جبر الله عبد الله صهر الطيب إبراهيم الشبلي الذي كان مسؤولاً عن مالية مدينة سنجة ومن كبار مساعدي الملك حسن عدلان، وذلك فضلاً عن تأسيسه

¹طبقات ودضيف الله وويكيبيديا الموسوعة الحرة

(<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%84%D9%81%D8%A7%D9%8A%D8%A7>)

خلوة وفصل لمحو الأمية في مدينة سنجة. وسكن في قرية فارس بالجزيرة شقيق الطاهر الشبلي وعديله الآخر محمد إبراهيم الشبلي المتزوج من ابنة عمه الأخرى عائشة الطاهر الشبلي. وأوت منطقة سنار (ود العباس) أبناء عمومة الشيخ الطاهر ومنهم شقيقا زوجته السيد وأبو الأمين الطاهر الشبلي. وكذلك ابن عمه إسماعيل الميرغني الشبلي. وتمثل منطقة الجزيرة عموماً موطناً تركزت فيه الغالبية العظمى من أهل الشيخ الطاهر الشبلي في أعقاب نزوحهم التدريجي من شمال وأواسط السودان، قبل هجرة بعضهم لمناصرة الإمام المهدي في مدينة أمدرمان في عام 1885م، وعلى رأسهم إبراهيم الشبلي، والد الشيخ الطاهر.

وتشير الدلائل إلى الدور الريادي البارز لمحسن الوسط في تشكيل الواقع الحالي للسودان والسودانيين من حيث ريادتهم في مجالات التعليم، ونشر الدين، والزود عن الوطن وتأسيس العاصمة المثلثة. وقد كان شيوخهم أشهر علماء مملكة الفونج وهي أول مملكة إسلامية في السودان ومنهم: إدريس ود الأرباب، وأرباب العقائد الخشن، وخوجلي أبو الجاز، وإمام أبو جنزير. واستوطن محسن الوسط بأم درمان والمقرن وتوتي وبري وشمبات وواوسي وحلفاية الملوك والغيلفون وكترانج والركيبة والكاملين وكلكول وغيرها من قرى الجزيرة والنيلين الأبيض والأزرق وكسلا¹.

¹ عون الشريف قاسم، موسوعة القبائل والأنساب في السودان .

التعلم في خلوة أم ضواً بان

كانت الأمية تخيم على مدينة أم درمان وكافة أرجاء السودان عند ميلاد الشيخ الطاهر الشبلي في عام 1885م الذي شهد أيضاً بزوغ فجر الثورة المهدية. وبعد انتصارها مباشرة شرعت الثورة المهدية في إحداث تغييرات كافة مفاصل الدولة بما في ذلك الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. بيد أن المجال التعليمي لم يحظ بتغييرات جوهرية حيث استمرت الخلاوي كمصدر رئيسي لتعليم الصغار والكبار على السواء. سيما وأن الثورة المهدية رفضت المؤسسات التعليمية الأجنبية وشجعت الخلاوي القائمة مسبقاً بحجة دورها في إرجاع السودانين إلى الكتاب والسنة. ورفضت الثورة المهدية العلماء الذين تعاونوا مع المستعمرين الأتراك الذين اعتبرهم المهدي وخليفته من بعده علماء السوء¹. ولقد لعبت الخلاوي منذ البداية دوراً رئيساً في الإعداد للثورة الوطنية. فالمهدي نفسه وليد التربية الدينية التي تلقاها في خلاوي دنقلا وبربر والجزيرة. وقد تأثر بالمشايخ والعلماء الذين كانوا يرفضون ممارسات الحكم التركي. وعند استيلاء جيش المهدي على الخرطوم اختيرت أم درمان كعاصمة للدولة حيث تركز فيها النشاط السياسي والعسكري للدولة الوليدة. وبعد موت المهدي شجع الخليفة عبدالله تعليم القرآن من خلال حلقات التدريس والتعليم التي نشأت في الأحياء المتعددة في أم درمان، وكان من أشهرها حلقة الشيخ محمد البدوي. أما بالنسبة لخلاوي القرآن، فقد تواصل الاعتماد عليها في عهد الخليفة كمصدر للتعليم الأساسي. وكان من أشهر الخلاوي في مدينة أم درمان في عهد الخليفة خلوة السيد المكي بالحي الذي يحمل اسمه، وخلوة ود مكاوي في حي الركابية، وخلوة الشيخ الجعلي في ود نوباوي، وخلوة الفكي الضرير بحي السد المكي، وخلوة ود كنة وخلوة موسى الأحمد.

استغل الشيخ الطاهر الشبلي المصادر التعليمية المحدودة المتاحة إبّان الثورة المهدية،

¹ محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرنين التاسع عشر والعشرين (1820م-1956م)، مركز محمد عمر بشير، جامعة منبر مانا لأهلية، 2005.

والتحق بخلوة أم ضواً بان لحفظ القرآن الكريم في عام 1890م وهو في سن الخامسة. ويجدر بالذكر أن هذه الخلوة التاريخية قد أسست على يد الشيخ العبيد ود بدر في عام 1841م. ويضم اسم الخلوة كلمة «ضوء» وهو عبارة عن النور المتولد من نار كثيرة الحطب كان الطلاب يقرأون القرآن معتمدين على ضوئها، حيث لم تكن الإنارة الكهربائية معروفة آنذاك. وتعرف نار القرآن بالتَّقَابَة. وما زالت آثار هذه النار موجودة حتى اليوم في شكل تل من الرماد يتوسط (القرآنية) داخل خلاوي مسيد الشيخ العبيد ود بدر. وبالرغم من توفر الإنارة الكهربائية في هذا الزمان، إلا أن نار القرآن ما زالت توقد بشكل رمزي كناية عن تواصل رسالة مسيد الشيخ العبيد في تدريس القرآن. أما كلمة «بان» فهي كناية عن ظهور ضوء نار القرآن من البعد. حيث كانت القوافل المتجهة للخلوة تستبشر بهذا الضوء المعبر عن دنو وصولها لهذه البقعة الطاهرة .

وتقع مدينة أم ضواً بان في الجزء الجنوب الشرقي من العاصمة الخرطوم على بعد نحو 45 كيلومتراً. وتقع إلى جنوبها قرية الديبة، وإلى شمالها قرية الشيخ أبوقرون، وإلى غربها قرية العيلفون، وإلى شرقها حلة الكدوة.

وكما هو معلوم فإن مصطلح الخلوة عند الصوفية في الدول الإسلامية يعني الاعتزال عن الناس بقصد الوصول إلى الحقيقة بالتقرب إلى الله والتأمل في ذاته. بيد أن مفهوم الخلوة في السودان له مدلول آخر حيث تعني المكان الذي تؤدي فيه وظائف التعليم الديني من تعلم للكتابة والقراءة وتحفيظ القرآن ثم دراسة العلوم الدينية من فقه وتوحيد وسائر علوم اللغة العربية¹. ووفقاً لهذا المفهوم التعليمي، أرسل الشيخ إبراهيم الشبلي ابنه الطاهر لخلوة أم ضواً لحفظ القرآن على يد الشيخ حسب الرسول ود بدر وتعلم الكتابة والقراءة ودراسة العلوم الدينية من فقه وتوحيد وسائر علوم اللغة العربية.

وتشير الشواهد التاريخية إلى أن أول ظهور للخلاوي في السودان كان أثناء حكم الشيخ عجيب المانجلك (1611-1570م). وتعرف الخلوة بأسماء عديدة مثل القرآنية أو الجامعة أو المسيد الذي يستخدم أيضاً كإسم للمسجد. كما تعرف الخلوة عادة باسم شيخها. وقد طغت أسماء بعض الخلاوي المشهورة على عموم منطقتها كخلوة ود الفادني، وخلوة ود كنان في منطقة الجزيرة بوسط السودان، وغيرها².

¹ يوسف بري ، الخلوة والمدرسة والمجتمع الحديث ،مجلة التوثيق التربوي العدد 22 سبتمبر 1972 ص 28.

² ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، التعليم في السودان.

وقد انتهج الشيخ الطاهر الشبلي في حفظه للقرآن في خلوة أم ضواً بان نفس النسق الذي كان متبعاً في الخلاوي آنذاك القائم على أسلوب التعليم الفردي الذي يعتمد على تلقي الطالب للعلم مباشرة من شيخه بحيث يتابع الشيخ طلابه كل على حدة. ويعلمه حسب قوة استيعابه وبذلك لا يحتاج الطالب إلى عددٍ محددٍ من السنين للتخرج، بل يتقدم حسب قدرته. ويمكن للشيخ الواحد - بمعاونة الطلاب المتقدمين - أن يشرف على نحو مائة من الطلاب كل منهم في مستوى تعليمي مختلف عن أقرانه. وقد بدأ الشيخ الطاهر في الخلوة مثل أقرانه بتعلم الكتابة بخط الحروف والشكل وضبط الكلمات على التراب برأس أصبع اليد دون حاجة إلى وسائل تعليمية مساعدة حتى أتقن كتابة الحروف وقراءتها، ثم استخدم بعد ذلك قلم البوص للكتابة على اللوح. وكان اليوم الدراسي في خلوة أم ضواً بان يستمر منذ الثالثة والنصف صباحاً بفترة تسمى بالدغيشة، وحتى العاشرة مساء اليوم التالي. وخلال فترة الدغيشة (قبل صلاة الفجر) كان الشيخ الطاهر يحفظ مع أقرانه المقرر اليومي الذي يحدده لهم الشيخ حسب الرسول ود بدر. وخلال الفترة التالية التي تعقب صلاة الفجر كان الطلاب يتلقون من شيخهم حسب الرسول ود بدر ما يعرف بالرمية، وهي عبارة عن درس إملاء أو إلقاء نصوص الآيات القرآنية على الطلاب، حيث يأخذ الشيخ مكاناً وسطياً ويلتف حوله الطلاب وهم جالسون على هيئة جلوس التشهد في الصلاة. وكان الشيخ الطاهر يقضي مع أقرانه في الخلوة فترة ما بعد شروق الشمس وحتى حوالي العاشرة والنصف صباحاً فيما كان يعرف بالضحوة حيث كان يُراجع ما حفظه في اليوم السابق من نصوص منفرداً، ثم يعرض بعد ذلك ما كتبه صباح اليوم خلال الرمية على الشيخ حسب الرسول ود بدر ليصحح له أخطاءه، وكان هذا التصحيح يُعرف باسم صحة القلم.

وبعد ذلك كانت تبدأ في خلوة أم ضواً بان فترة قيلولة الطالب من الحادية عشرة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر حيث يتناول فيها الطالب إفطاره ويأخذ قسطاً من الراحة حتى يحين موعد صلاة الظهر. وتبدأ بعدها فترة الظهرية، وفيها كان الشيخ الطاهر يقرأ

على الشيخ حسب الرسول ود بدر ما كتب في اللوح في آخر رمية تصحيحاً للقراءة نطقاً
وتجويداً، ويُعرف هذا التصحيح في الخلاوي بصحة الحَشَم أي صحة الفم. وتنتهي فترة
الظهرية بصلاة العصر لتبدأ بعدها فترة المطالعة التي تنتهي بدورها قبيل صلاة المغرب.
وفي هذه الفترة كان الشيخ يقرأ على طلابه وهم يتابعون من ألواحهم، وبعد الصلاة
يعرض الطالب على الشيخ ما حفظه بالأمس وتُسمى بالعرضة. وخلال فترة ما بعد
العشاء وحتى الساعة العاشرة ليلاً التي كانت تسمى بالسبع كان الشيخ الطاهر يقرأ
مع أقرانه في الخلوة سبعة أجزاء مما حفظه من نصوص آيات وهو يدور في محيط مساحة
منبسطة توقد فيها نار للإضاءة تُسمى التُّقَابَة. وما يجدر ذكره أن هذا البرنامج المكثف
في خلوة أم ضواً بان لا يتوقف إلا في عطلة العيدين حيث كان الشيخ الطاهر يعود لأهله
في حي السيد المكي بأم درمان.

موقعة كرري وشهداء آل الشبلي

ساد التناول التوثيقي لموقعة كرري التاريخية التركيز على الإخفاق العسكري في إدارة المعركة وإغفال التحليل المتناسك للدروس والعبر المستفادة من هذه الموقعة التاريخية. ولعل من أبرز هذه العبر المهمة - دور المعركة في إزكاء روح المقاومة للمستعمر وابتكار الأساليب الناجعة لمقاومته وطرده من تراب الوطن. وكان على رأس هذه الأساليب المبتكرة ريادة التعليم الأهلي في السودان. وقد نتج عن التناول الضيق لمعركة كرري تجاهل الدور الوطني البارز لنفر متفرد من أبناء السودان أصحاب الفعل والإرادة الذين ساهموا جوهرياً في صنع الأحداث والرمي بهم في قبضة المجهول وغياهب النسيان. وأدى هذا التوثيق غير الدقيق لنتائج المعركة بل والسطحي أحياناً إلى إسباغ الهالة والبريق وصنع البطولات والإنجازات لمن هم أدنى عطاء وأبته مشاركة في صنع تاريخ الوطن، كما ورد في عددٍ من الإصدارات غير المتمعنة التي تناولت تاريخ التعليم في السودان. وعليه فإن هذه المساهمة في سبر غور الدروس والعبر المستفادة من نكسة معركة كرري ترمي للوصول للحقيقة بالموضوعية والتجرد اللازمين عن طريق فحص وتحليل الأحداث والوثائق المتصلة بها، وتقديم البدائل المستنيرة المستندة على أدلة موثقة ومتناسكة دون إفراط أو تفريط.

بعد أن أكمل الشيخ الطاهر دراسته في خلوة أم ضواً بان نال عدداً من الشرافات تقديراً لحفظه للقرآن الكريم في الخلوة على يد شيخه حسب الرسول ود بدر. وعاد لحي السيد المكي بمدينة أم درمان بجوار والده إبراهيم الشبلي في عام 1896م وقد تسلم بقدر كبير من العلم الذي تلقاه في الخلوة. وفور عودته لأم درمان واصل تلقيه للعلم على يد كبار علماء السجادة الإسماعيلية بحي السيد المكي، وعلى رأسهم السيد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي.

وفي هذه الأثناء بدأت قوات الحكم الثنائي الإنجليزي المصري بقيادة اللورد كتشنر حملتها للقضاء على الثورة المهدية التي شارك في نجاحها الباهر والد الشيخ

الطاهر وأعمامه المغاوير. وتحرك جيش كتشنر نحو السودان في مايو 1896م ووصل منطقة فركة في 7 يونيو 1896م وكوشة في 19 سبتمبر 1898م ثم دخل دنقلا في 23 سبتمبر 1896م ومروى في 26 سبتمبر 1896م. وبذلك انتهى كتشنر مهمته وأسس قاعدة للجيش المصري تمهيداً لإعادة السودان للخلافة العثمانية وعاد بعدها إلى القاهرة في 13 أكتوبر 1896. وفي مايو 1897م حصل كتشنر على موافقة البرلمان الإنجليزي لاسترداد كل السودان. وواصل حملته حتى وصل عطبرة في 8 إبريل 1897م.

وبعد الانتصارات التي حققها الجيش الغازي على جيش المهدي واصل تقدمه جنوباً حتى وصل منطقة كرري بعد أن عبرت قواته منطقة شلال السبلوقة الوعرة بسلام. وأقامت قوات كتشنر معسكراً مؤقتاً في منطقة الزريبة توطئة للانقضاض على أم درمان. وما أن بدأ الليل في إرخاء سدوله بدأت طلائع جيش الخليفة عبدالله التعايشي في اتخاذ مواقعها في جبال منطقة كرري في مواجهة جيش الغزاة. وأثار هذا الجيش الشرس الرهبة والذعر وسط جنود الجيش الغازي حيث كان الغزاة يتذكرون ما حدث لغردون عندما واجه جيش المهدي قبل ثلاثة عشر عاماً. وظل جنود جيش الفتح البريطاني يتوجسون خيفة وذعراً طوال الليل خشية من انقضاض الجنود السودانيين عليهم في عتمة الظلام الدامس، حيث لا تجدي الأسلحة النارية الفتاكة في غياب الرؤية الكاملة. وخلافاً لرأي بعض القادة العسكريين الأذكياء بمهاجمة قوات الغزاة ليلاً لتفادي مدافع المكسيم الفتاكة، أصر الخليفة عبدالله وأخوه الأمير يعقوب أن يكون الهجوم نهاراً في اليوم التالي.

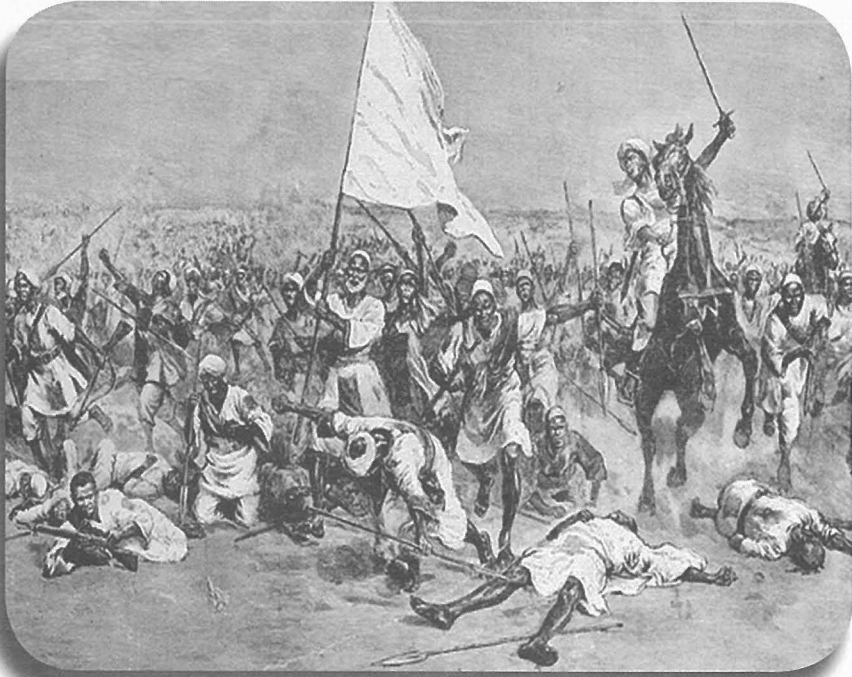
وعندما لاحت تباشير فجر يوم 2 سبتمبر 1898م لم يصدق قادة الجيش الإنجليزي أن جيش الخليفة عبدالله أمهلهم كل ساعات الليل دون أن يهاجمهم في ذلك الظلام الدامس. وبحلول فجر ذلك اليوم تغير ميزان القوى رأساً على عقب. ففي حين اقتضى الفكر العسكري السليم أن يكون جيش الخليفة بمقاتليه الأشاوس في وضع المدافع الجسور عن مدينة أم درمان الباسلة، تحوّل جيشه لوضع المهاجم المكشوف.

وفي ذات الوقت فإن جيش كتشنر الغازي الذي يفترض أنه في وضع الهجوم على أم درمان تحول إلى جيش مدافع متخندق خلف متاريسه العvisية، وتحمي ظهره البواخر النيلية بمدافعها الموجهة لحماية ميمنة الجيش الغازي. وكما هو معلوم في أدبيات العلوم العسكرية فإن الجيش المهاجم هو الذي عليه أن يتحمل الخسائر الأكبر حتى في حالة تكافؤ نوعية السلاح المستخدم من الجانبين، ناهيك عن المواجهة بين من يحملون مدافع المكسيم ومن يشهرون الحراب والسيوف.

وفضلاً عن الفارق الهائل في نوعية السلاح، كانت شمس الصباح الحارقة تجهر أعين جنود جيش الخليفة البواسل وهم يتسابقون في شجاعة وبسالة منقطعة النظير نحو معسكر الغزاة. بينما كان جنود الجيش الغازي في خنادقهم وسواترهم في أفضل وضع ورؤية كاشفة لكل ميدان المعركة. وفي تمام الساعة السادسة من صباح يوم 2 سبتمبر 1898م أمر الخليفة عبد الله جنوده المقدامين بالهجوم على الغزاة. وما أن تردد صدى ذلك الأمر في أذان الجنود الشجعان حتى تدافعت أفواجهم بجسارة متناهية في حالة كر دون فر نحو العدو المتحصن. وكان قوام القوات المهدية 60 ألف جندي وتعداد الجيش الإنجليزي المصري حوالي 6 آلاف جندي مسلحين بالمدافع الرشاشة الحديثة (مدفع المكسيم) وتدعمهم البواخر الحربية. وفي تمام الساعة الثامنة صباحاً، أي بعد ساعتين فقط من بداية المعركة أمر كتشنر جنوده بوقف إطلاق النار بعد أن مزقت مدافع المكسيم أجساد جنود المهدية البواسل، وهم يتدافعون في موجات أحادية الاتجاه نحو معسكر الغزاة. وأسفرت هذه المعركة غير المتكافئة عن استشهاد نحو 18 ألف من أنصار الإمام المهدي، وجرح فيها أكثر من 30 ألف مقاتل من أصل 60 ألف مقاتل هم قوام الجيش، حيث لم ينسحب من المعركة سوى 12 ألف فرد فقط كان من بينهم الخليفة عبد الله وعدد من أمرائه. وقد سجل عدد الضحايا من السودانيين رقماً قياسياً في المعارك الحربية إذ بلغت نسبتهم نحو 80% بين شهيد وجريح. بينما فقد كتشنر حوالي 47 فرداً من جنوده أي أقل من 1%. ولعل أكبر دليل على البسالة المنقطعة النظير لهؤلاء الرجال الذين رووا رمال وصخور أم درمان بدمائهم الطاهرة الزكية مقولة

ونستون تشرشل الشهيرة: لم نهزمهم ولكن دمرناهم بقوة السلاح، واصفاً إياهم بأنهم أشجع من على باطن الأرض وظاهرها. كما قال عنهم المؤرخ البريطاني فيليب وارنر: ربما وجدنا في كل تاريخ الإنسانية من ماثلت شجاعتهم بسالة الأنصار، ولكن قطعاً لن نجد من تفوق عليها. وقال ستيفن واصفاً ما شاهده بنفسه في كرري: لقد كان هذا اليوم آخر أيام المهديّة ولكنه كان بحق أعظمها علي الإطلاق لم يتراجع العدو قط ولم تكن كرري معركة بل كانت حادثة إعدام أبطال. وفي 4 سبتمبر 1899م دخل كتشنر الخرطوم ورفع العلمين المصري والبريطاني. وفي 24 نوفمبر 1899م استشهد الخليفة عبد الله وأكثر أمرائه وأسر الباقون في أم دبيكرات.

موقعة كرري 1898م



الدراسة في حلقة الشيخ محمد البدوي

تجسيداََ للدروس القيمة التي أفرزتها معركة كرري في شخصية الشيخ الطاهر الشبلي فقد قرر الالتحاق الفوري بحلقة الشيخ محمد ود البدوي للتعليم المتقدم في اللغة العربية وفروعها، والفقه الإسلامي، وعلوم القرآن. ويجدر بالذكر هذه الحلقة التعليمية قد بدأت بمنزل الشيخ محمد البدوي بحي العباسية بأمر درمان بعيد انتهاء الدولة المهدية في عام 1898م. وظل الشيخ الطاهر الشبلي طالباً في هذه المدرسة إلى أن توفي الشيخ محمد ود البدوي في عام 1911م.

وقد عرف عن الشيخ محمد البدوي قوة الشكيمة والاعتداد بالدين والنفس أمام المستعمر الإنجليزي، حيث أورش طلابه وعلى رأسهم الشيخ الطاهر الشبلي هذه الخصال الوطنية الحميدة. ويُذكر أن شيخ الإسلام الأول محمد البدوي كان أول من رفع الأذان في احتفال رسمي أقامه الجنرال فرنسيس ريجنالد ونجت (الحاكم العام حينها) على شرف زيارة الملك جورج الخامس عام 1905م. فقد فوجئ الحضور بالشيخ محمد البدوي يرتقي المنصة في ساحة القصر ويرفع أذان المغرب. وقد رمى الشيخ الجليل من وراء ذلك إلى إغاية الكفار وإشهار اعتزاز المسلمين بتعاليم دينهم والتزامهم بعباداته المفروضة. وفي حادثة مماثلة تنطوي على إغاية الكفار، روي أن زوجة مفتش أم درمان الإنجليزية التي كان منزلها بالقرب من مسجد الخليفة عبد الله التعايشي قد شكت لزوجها في عام 1903م أن المذائح وأصوات النوبات والطار تطرد عنها النوم. فرفع زوجها الأمر إلى شيخ الإسلام لإيقاف هذه الأصوات. ولكن على عكس إرادة المفتش الإنجليزي فقد استدعى الشيخ محمد البدوي كل شيوخ الطرق الصوفية الذين لهم خيام في ساحة المولد وأمرهم بأن يتوجهوا إلى منزل مفتش مركز أم درمان الإنجليزي ويقيموا أذكارهم بنوباتهم وطاراتهم بعد صلاة العشاء وإلى حلول موعد الفجر. وكان الشيخ محمد البدوي وثيق الصلة بالطرق الصوفية نظراً لصلته بالطريقة التجانية. وكان شيخ الإسلام الأول محمد البدوي يحرص دائماً على تطبيق مبدأ (لا

ينبغي لأحد من الكفار أن يعلو أبناء الوطن). فقد رُوي أن مرجان غلام الشيخ ود البدوي كان يخبره في حالة قدوم الحاكم العام أو مفتش المركز أو أي مسؤول إنجليزي آخر لزيارته. فكان الشيخ يبادر بسؤال غلامه هل جاء راكباً أم راجلاً؟ فإذا قال له جاء راكباً يأمر غلامه بأن يسدي الحمار ليقابله راكباً حتى لا يبدو أقل منه قامة.

كما رُوي عن الشيخ محمد البدوي أن الخليفة عبد الله التعايشي قال عنه أن «الشيخ ود البدوي يخاف من الله ولا يخاف مني، في حين أن هناك عدداً من الشيوخ يخافون مني ولا يخافون من الله». وفي هذا الصدد يذكر أن عدداً من شيوخ السلطان أفتوا بضرورة إقامة سوق أم درمان بجوار مسجد الخليفة، ولكن الشيخ ود البدوي رفض هذه الفتوى لكونها ترمي لإراحة الحاكم لا إراحة عامة المسلمين.

ويذكر عن الشيخ محمد البدوي أنه رفض أيضاً إصدار فتوى تفرض ضرائب على السودانيين لفائدة المستعمر البريطاني. فما كان من المستعمرين إلا أن دسوا له سماً تدريجي المفعول، فتوفى بتأثير السم عام 1911م.

ويجدر بالذكر أن الشيخ محمد أحمد البدوي «ود البدوي» قد ولد في بلدة الحماداب بمنطقة قنتي في شمال السودان عام 1841م. وكغيرها من الأسر الدينية في منطقة الشمالية، انتقلت أسرة الشيخ محمد البدوي إلى كردفان لتلقي العلم ونشره، حيث نشأ في مدينة الأبيض وحفظ فيها القرآن الكريم وتلقى علوم التوحيد والفقه وأدب اللغة العربية على مشاهير علمائها. وهاجر بعد ذلك إلى الأزهر الشريف للاستزادة من العلم في عام 1866م. وفي الأزهر بهر الشيخ ود البدوي شيوخه وعلى رأسهم شيخ الإسلام محمد عlish بذكائه الوقاد. ويذكر أن من بين زملاء الشيخ محمد البدوي في الأزهر من أحرزوا تفوقاً بارزاً الشيخ علي البوشي، والد العالم النحرير الشيخ مدثر علي البوشي حفيد الشيخ إسماعيل الولي والمولود بحي السيد المكي بأم درمان. وعندما أدرك علماء الأزهر مدى تفوق ونمو محمد أحمد البدوي في العلوم الدينية، اختاروه شيخاً على أترابه في الأزهر. وعند انتهاء دراسته بالأزهر نال شهادة الإجازة العلمية

بأعلى الدرجات في عام 1877م. وبعد أن تزوّد الشيخ محمد أحمد البدوي بالعلم والمعرفة في الأزهر بالقاهرة، عاد إلى السودان عن طريق الأربعين واستقرّ في الفاشر، وأخذ ينشر علوم الدين، وبقي فيها نحو ست سنوات. وفي عام 1882م كتب إليه الإمام المهدي بعد تحرير مدينة الأبيض من الاستعمار، فسارع إليه «ود البدوي» في الأبيض، وبقي معه حتى توجه معه لفتح الخرطوم في عام 1885م. وتم تعيينه في عهد الإمام المهدي قاضياً بمنطقة سنار، كما تولى مهام القضاء في بربر في عهد الخليفة عبدالله، ثم استدعاه الخليفة لأم درمان لملازمة مجالسه الدينية.

وبعد انتهاء دولة المهديّة في عام 1898م سكن الشيخ محمد البدوي بحي العباسية بأم درمان وظل يعقد في داره حلقة علمية كبيرة لتدريس العلوم الفقهية. وأصبح منزله قبلة لطلاب العلم ومن بينهم الشيخ الطاهر الشبلي، الأمر الذي أثار قلق الإدارة البريطانية من توسع تأثيره على الطلاب وأسره من أعيان مدينة أم درمان ضد حكم المستعمر. وبناءً على ذلك أصدر الحاكم العام قراراً بتكوين لجنة من العلماء لتتولى تدريس العلوم الدينية بحيث يكون الجامع الكبير بأم درمان مقراً لتلك اللجنة حتي تسهل مراقبتهم، ولكن العلماء أصروا على التدريس في منازلهم حيث ظلت حلقة الشيخ محمد البدوي في منزله حتي وفاته في عام 1911م. وكان طلاب الشيخ محمد البدوي في الغالب الأعم الخلاصة من بيوت الدين في السودان التي لها أبلغ الأثر في تشكيل هويته المعاصرة. ومن هؤلاء الطلاب السيد عبد الرحمن محمد أحمد المهدي، والسيد ميرغني السيد المكي، والسيد محمد السيد الباقر الشيخ إسماعيل الولي، والشيخ الطاهر إبراهيم الشبلي، والشيخ قريب الله أبو صالح بن الشيخ الطيب بن البشير، والشيخ اسحق بن الشيخ حمد النيل العركي، والشيخ الصلحي، والشيخ عثمان بشير العمرابي، والشيخ علي بخيت، والشيخ إبراهيم أبو الزين. وتعتبر حلقات الشيخ محمد البدوي والشيخ الأمين الضرير والشيخ محمد عبد الماجد من معالم مدينة أم درمان في ذلك الزمان. وكانت منازل هؤلاء العلماء بالإضافة إلى مهامها

التعليمية تقام فيها المناسبات الدينية مثل إحياء ذكرى الهجرة النبوية والمولد النبوي الشريف والمناسبات الاجتماعية مثل عقود القران وتقديم الفتاوى¹.

وفي أثناء دراسته في حلقات ود البدوي كان الفتى الطاهر الشبلي يتابع بشغف وفخر مجاهدات الشريف يوسف الهندي (1869م - 1942م) ضد المستعمر. ففي عام 1905م اتهمت سلطات المستعمر الشريف يوسف الهندي بتكوين حركة دينية لمقاومة حكمهم الغاصب. وكان الشريف حينها تحت حماية الصوادة أهل الشيخ الطاهر الشبلي في منطقتي الربوة وود العباس. وتمكنت قوات المستعمر من إلقاء القبض على الشريف في منطقة وود العباس التي شهدت لاحقاً في عام 1916م زواج الطاهر إبراهيم الشبلي من ابنة عمه زينب الطاهر الشبلي. وفور اعتقال الشريف أحضره الغزاة إلى الخرطوم بعد تقديمه لمحاكمة صورية ظالمة في مدينة وود مدني. وأودع الشريف يوسف السجن العمومي بكوبر بمدينة الخرطوم بحري حيث أمضى عدة سنوات. وأفرج عنه لاحقاً حيث أقام في منطقة بري اللاماب، ولكنه ظل وثيق الصلة بأعيان مدينة الخرطوم بيري وتوتي والجريف غرب من أمثال الملك عبد الرحمن سعيد الذي ربطته به صلة المصاهرة، وعلي أبو زيد الذي صاهره لاحقاً ابن الشيخ الطاهر الشبلي البكر، مدني².

وما يجدر ذكره أن أربعين ممن كانوا يسمون علماء في ذلك الوقت قد وقعوا عريضة مطالبين بإعدام الشريف يوسف الهندي، مبررين فعلتهم للمستعمر بأن الشريف يسعى لإحياء الفتنة. وكما هو معلوم فقد رفض الشيخ محمد ود البدوي، أستاذ الشيخ الطاهر الشبلي التوقيع على هذه العريضة التي كانت تمثل أنموذجاً للذين خانوا الوطن مقابل حفنة من الأموال والوظائف الزائلة. وكان هذا الموقف الشجاع من الشيخ محمد البدوي دافعاً قوياً للفتى الطاهر الشبلي لمواصلة الارتباط بأستاذه الجليل ليتعلم منه المزيد من الدروس الوطنية. وأضاف هذا الدرس لخصيلة الدروس السابقة التي تعلمها من معركة كرري³.

¹ معتمد الحاج : التعليم الأهلي في أمد زمان.

² مذكرات الشريف حسين الهندي.

³ Winston S. Churchill, The River War, An Account of the Re-conquest of the Sudan, 1902 edition

الزوجات والأبناء

تزوج الشيخ الطاهر إبراهيم الشبلي ابنة عمه زينب الطاهر الشبلي في 18 أبريل 1916م عندما كان عمره 31 عاماً. وتمت مراسم عقد القران في حلة غرسلي بمركز سنار، حيث كان يسكن غالبية أهل الشيخ الطاهر بعد تواتر نزوحهم من شمال السودان ثم إلى منطقة شندي ثم منطقة الحلفايا، قبل انتشارهم في منطقة الجزيرة في الربوة وسنار وسنجة وفارس. وتعتبر السن التي تزوج فيها متقدمة نسبياً بمقاييس ذلك الزمان، ولكن ذلك يجد التفسير في تفرغه لتلقي العلم في خلوة أم ضواً بان، ثم تأثره البالغ بالآثار العائلية لمعركة كرري التي استشهد فيها عماء المدني والمطيب، وجرح فيها والده إبراهيم وعمه الشايب، حيث ظل بقرب والده يضمده جراحه الغائرة إلى أن اختاره الله إلى جواره شهيداً من أجل الدين والوطن. وبعد ذلك كرّس الشيخ الطاهر جهده لمواصلة تلقيه العلم في حلقات الشيخ محمد البدوي التي ظل فيها حتى عام 1911م. وتلا ذلك انشغال الشيخ الطاهر بتأسيس مدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية بمدينة أم درمان في عام 1912م، حيث شهد عام 1913م التحاق الزعيم إسماعيل الأزهري كطالب بالمدرسة.

وتفيد قسيمة زواج الشيخ الطاهر من ابنة عمه زينب أن المأذون كان حسين محمد حمد عبد الحفيظ، وكان الصداق عشرة جنيهاً والمقبوض خمسة جنيهاً، وشهد عليه محمد عوض الله ومحمد بن مضوي. وبعد إكمال مراسم الزواج عاد الشيخ الطاهر مع زوجته لمنزله بحي السيد المكي بأم درمان. وولدت زينب من الذرية مدني وفاطمة الزهراء وعائشة¹.

¹ قسيمة الزواج دفتر 2511 رقم مسلسل 50

وفي عام 1932م تزوج الشيخ الطاهر زوجته الثالثة آمنة نوري، وهي من أحفاد الشيخ إسماعيل الولي. وولدت له من الأبناء والبنات ست البنات وإسماعيل ومريم وميمونة وأحمد وعلم الدين والفتاح.

[illegible]

شهادة ميلاد الإبن محمد الباقر المولود عام 1920م

20869 No. ٢٥٩٩
اسم ودفتره اضافي

PRICE P.T. القين فرشان
EXTRACT FROM BIRTH REGISTER*
مستخرج من سجل المواليد * كذا

مديرية السليمانية Omdieh مركز امديت Merkaz مديرية القلم
لا نمرة السجل ٢٤٨
تاريخ الميلاد ١٩٢٠/٥/٧
الجنس (ذكر أو انثى) ذكر اسم المولود محمد الباقر
الجنسية أو القبيلة صاوو
اسم الوالد الوالد السيد
اسم الأم الوالدات
محل الميلاد امديت
تاريخ الشهادة ١٩٢٠/٥/٧
امضاء المأمور او الملتحقين مأمور ديا
Signature of Mamur or Maazoon
١٩٢٠/٥/٧
* The letter and number of the Register must be invariably filled in here.
- يجب دائما وضع حرف وفترة السجل باقلى هذا الاداريك امام العلامة هكذا *
+ The consecutive number in the Register to be filled in here.
- يجب وضع فترة السجل المتتالية باقلى هذا الاداريك امام العلامة هكذا *
١٩٢٠/٥/٧
السليمانية

شهادة ميلاد الابنة فاطمة الزهراء المولودة عام 1920م

٢٥٩٩ No. ٢٤٨
اسم ودفتره اضافي

E.Z.P.T. القين فرشان
EXTRACT FROM BIRTH REGISTER*
مستخرج من سجل المواليد * كذا

مديرية السليمانية Omdieh مركز امديت Merkaz مديرية القلم
لا نمرة السجل ٢٩٧
تاريخ الميلاد ١٩٢٠/٥/٧
الجنس (ذكر أو انثى) انثى اسم المولود فاطمة الزهراء
الجنسية أو القبيلة صاوو
اسم الوالد الوالد السيد
اسم الأم الوالدات
محل الميلاد امديت
تاريخ الشهادة ١٩٢٠/٥/٧
امضاء المأمور او الملتحقين مأمور ديا
Signature of Mamur or Maazoon
١٩٢٠/٥/٧
* The letter and number of the Register must be invariably filled in here.
- يجب دائما وضع حرف وفترة السجل باقلى هذا الاداريك امام العلامة هكذا *
+ The consecutive number in the Register to be filled in here.
- يجب وضع فترة السجل المتتالية باقلى هذا الاداريك امام العلامة هكذا *
١٩٢٠/٥/٧
السليمانية

شهادة ميلاد الابنة فاطمة البتول المولودة عام 1927م

PRICE 5 P.T. EXTRACT FROM CENTRAL BIRTH REGISTER*

مستخرج من سجل المواليد العمومي * الخزطيم ١٩٢٧

Province..... Omdie مركز مديرية الخزطيم

Number in Register..... ١٩٠٤ X

Date of Birth..... ١٩٢٧/١١/١٩ (في اليوم التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٢٧م)

Name of Child..... فاطمة البتول Sex أنثى

Rationality or Tribe..... الحفصية او القبيلة

Name of Father..... المطا هراتي

Name of Mother..... عا بستيم بلون رمضان

Place of Birth..... محل الميلاد م. د. م. ح. ح. ح.

Date of Certificate..... ١٩٢٧/٩/٢٢ تاريخ الشهادة

Signature.....

* The letter and number of the Register must be invariably filled in here.

† The consecutive number in the Register to be filled in here.

× يجب وضع نمرة السجل المتسلسلة باعلى هذا الاورنيك امام العلامة هكذا ×

شخصية الشيخ الطاهر الشبلي

تُعرّف الشخصية بالنسبة للإنسان بأنها مجموعة من الصفات الاجتماعية والعقلية والنفسية التي تنعكس في مجموعة من السلوكيات والطباع التي تميزه عن الآخرين. وقد عُرف عن الشيخ الطاهر الشبلي أن صفاته الاجتماعية والعقلية والنفسية قد تمازجت لتفرز شخصية قوية كارزمية مُهابة استشعرها المحيطون به على مجمل المستويات الأسرية والمجتمعية. وقد اكتسب الشيخ الطاهر هذه الصفات التي كانت سمة ملازمة لاسمه من قوة علاقته بالله التي أكسبته ثقة متناهية بالنفس طيلة مراحل حياته منذ طفولته وإلى أن خرّ شهيداً في مكتبه.

ومنذ نعومة أظافره تأثرت شخصية الصبي الطاهر الشبلي بالبيئة والزمان الذي ولد ونشأ فيه. حيث كان من أوائل من ولد في مدينة أم درمان في عام تأسيسها بواسطة الإمام محمد أحمد المهدي في عام 1885م. وكان لتوافق ميلاده مع فتح مدينة الخرطوم على يد أنصار الإمام محمد أحمد المهدي، الأثر الكبير على البيئة الأسرية التي شهدت طفولته. فقد ترعرع في مناخ أُسري تخيم عليه عزة النفس وشموخ الانتصار الباهر على المستعمر الإنجليزي الذي شارك فيه أبوه إبراهيم وعمّاه الشجعان المدني والمطيب. ومنذ نعومة أظافره اكتسب الشيخ الطاهر الشبلي من هذه البيئة الصالحة قوة الشخصية، ورباطة الجأش، ومضاء العزيمة، ومكارم الأخلاق، واستقامة السلوك، ووضوح الرؤية، وكرهية المستعمر.

وساعد على تكوين شخصية الشيخ الطاهر القوية تحمله لمسئولية نفسه في سن مبكرة عند التحاقه بخلوة أم ضواً بان البعيدة عن أهله ولم يتجاوز عمره الست سنوات. كما أن البيئة الاجتماعية للخلوة غرست فيه روح التخلي عن العادات السيئة والسلبية، والتحلي بالصفات النبيلة الإيجابية. وفي هذه المرحلة المبكرة وضع الشيخ الطاهر لنفسه مبادئ راسخة وسديدة ومعتقدات سليمة قوية صارت له منهاجاً في حياته واصبحت له نبراساً في تعامله مع الآخرين على مستوى الأسرة والمجتمع. كما شرع الشيخ الطاهر في

هذه السن في تكوين آرائه الخاصة به المتسقة والمتوافقة مع مبادئه الثابتة. وبعد عودة الشيخ الطاهر لأم درمان من خلوة أم ضواً بان متسلحاً بقدر وافر من الصفات الحميدة، واصل ارتباطه الوثيق وتعلمه مكارم الصفات من والده إبراهيم الشبلي. وأبدى قدرة فائقة على الانسجام مع الآخرين في الحي وحافظ على علاقات حميمة مع أقرانه اكتسبته الاحترام والتقدير من جميع ممن حوله من الكبار والصغار. وبرزت في شخصية الشيخ الطاهر سرعة البديهة، وحب المبادرة، ومساعدة الآخرين، والقدرة على اتخاذ القرار، والقدرة على التعامل مع الضغوط والأزمات، واتخاذ القرار المناسب في اللحظة المناسبة.

وعندما نادى منادي الجهاد مرة أخرى في 2 سبتمبر 1898م انبرى والده إبراهيم للمشاركة في معركة كرري، وكان عمر الصبي الطاهر لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً. وما أن خمد غبار المعركة، ورائحة البارود لا تزال تزكم الأنوف في محيط الجبل الأشم في كرري، ذهب الشيخ الطاهر بصحبة أبناء الحي وبعض الأنصار إلى موقع المعركة حيث وجد عماء المدني والمطيب شهيدين مضرجين بدمائهما وقد مزقت مدافع المكسيم أحشاءهما. ووجد بالقرب منهما والده إبراهيم وهو ينزف بغزارة من الجروح الغائرة التي أصابته من مدافع العدو. وفي هذا المشهد الرهيب تجلت قوة شخصية الصبي الطاهر الشبلي حيث شرع مباشرة في تضميد جراح والده، وتجهيز جثمانه عميه المدني والمطيب للدفن في موقع المعركة. وكان هذا المشهد الدامي لحظة فارقة في تكوين شخصية الشيخ الطاهر الشبلي حيث أثار فيه كوامن الغضب والامتناع والبغض الجامح نحو المستعمر الغاشم المقيت. وبينما كان الجميع منهمكين في تشييع جثامين الشهداء ومعالجة الجرحى، كان عقل الصبي الطاهر منهمكاً في كيفية الانتقام لهؤلاء الرجال الأشاوس الشجعان، وتطهير الوطن ومدينة أم درمان الباسلة من دنس الطغاة الغاصيين. وبدأت تجول في خاطره دوافع قوية للإعداد لمعركة قادمة ضد المستعمر لاجتثاث الباطل ونصرة الحق الذي سالت في سبيله دماء أهله الطاهرة. وتيقن في ذلك

الحين أن أول متطلبات هذه المعركة الحتمية هي التحلي بمكارم الأخلاق والإعداد العقلي والنفسي لتولي قيادة الآخرين والسير أمامهم نحو تحقيق الغايات المنشودة.

وكان أول ما فكر فيه الفتى الطاهر الشبلي في الإعداد للمعركة القادمة ضد المستعمر الغاصب هو التحلي بمواصفات الاستقامة امتثالاً لقوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾¹.

وقد مثلت الاستقامة في منظوره تعظيم أوامر الله بالمسارعة إلى امتثالها، وتعظيم نواهي الله بالبُعد عنها واجتنابها. وقد تعلم الشيخ الطاهر وهو في سن مبكرة من والده أولاً، وفي خلوة أم ضواً بان، ولاحقاً في حلقات الشيخ محمد البدوي تربية على حياة الطهارة والعفة والشرف والفضيلة والتقوى. ووطّن نفسه على أن الخروج على هذه التربية والانحراف عنها يمثل خروجاً على القوانين التي أنشأ الله عليها الكون بكافة مكوناته. وعقد العزم على التمسك بحياة العفة والشرف وعدم اللين أو التهاون أمام الإغراء المادي خاصة من جانب المستعمر البريطاني.

ويروي جيران وتلاميذ الشيخ الطاهر الشبلي أنه كان دائماً ملازماً للطريق المستقيم مبتعداً عن كل زيغ وانحراف ثابتاً على دين الحق. فقد تعلم الشيخ الطاهر منذ طفولته أنه لا يمكن للفرد أن يؤثر إيجاباً على المجتمع من حوله ما لم يكن صاحب أخلاق رفيعة وقدوة تحتذى من غيره. وعليه فقد عُرف عنه زهده المشهود عن التملك الشخصي رغم أنه كان في مقدوره امتلاك أراضٍ شاسعة وعلى مد البصر في مدينة أم درمان العتيقة التي كان من أوائل مؤسسيها والمتعلمين فيها. وذلك فضلاً عن مشاركة والده في فتح الخرطوم، واستشهاد آبائه في الدفاع عن أم درمان وصون شرفها في موقعة كرري التاريخية. ولكن الشيخ الطاهر أثر التغلب على شهوة التملك البغيضة حيث فضّل تشييد مدرسة الهداية في الجزء الأكبر من منزله الخاص عوضاً عن التذلل

¹سورة هود: 112

للمستعمر لمنحه آلاف الأمطار لذلك الغرض. وفي هذا الخصوص يروى عنه أنه وافق على التخلي عن واجهة منزله المطلة على الشارع الرئيسي (شارع السيد علي الميرغني) لجاره الأمير لاي عبد الله بك خليل الذي كان في حاجة لهذه الواجهة. وضرب بذلك مثلاً آخر على نجاحه في مغالبة النفس الراغبة في التملك، وتحليه بروح التناصر والتعاضد مع جيرانه. وبذلك فقد جمع الشيخ الطاهر بين خيرى المهاجرين والأنصار - الإيثار والتعفف.

وقد عرف كافة مواطني مدينة أم درمان عن الشيخ الطاهر الشبلي تحليه بالاستقامة في كافة مجالاتها وميادينها. وكما هو معلوم فإن الاستقامة لغة تعني الاعتدال مع الحزم، وأما شرعاً فهي اتباع الطريق المستقيم والثبات على حقيقة الصدق والوفاء. ويشمل ذلك فعل كل الطاعات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. ففي مجال الاستقامة الفكرية شهد له بالالتزام بالتشريعات الإلهية والقيم والمبادئ الإسلامية. ونأى بنفسه عن تقديم الفتاوى والأحكام التي تخدم المستعمر وتبيح دماء وأعراض وممتلكات أبناء وطنه كما كان يفعل عدد من علماء البلاط ووعاظ السلطان في ذلك الزمان. أما في مجال الاستقامة الاجتماعية، فقد عرف عن الشيخ الطاهر الشبلي الحزم والاعتدال في التعامل مع المجتمع من حوله. وكان ديدنه التعامل مع أبنائه التلاميذ بحيث يساهم في تربيتهم وتعليمهم والمساواة بينهم، والحكم بينهم بالعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وعدم الاستقواء عليهم. وفي مجال الاستقامة الوطنية فقد وطن الشيخ الطاهر نفسه على عدم التفريط في حقوق أبناء وطنه وحرص على مساعدتهم في شؤونهم العامة والخاصة. وقد حكى تلاميذه أن دوره في تربيتهم كان يفوق دور الأسرة نظراً للثقة الكبيرة التي كان يوليه لها آباء التلاميذ لما لمسوه فيه من قوة الشخصية والتزامه بالاستقامة.

وقد أمر الله تعالى بالاستقامة، وحث عليها في عدة آيات منها قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا الْجَنَّةَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ¹.

وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ²
وقوله تعالى: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ³.

وبعد أن أعد الشيخ الطاهر نفسه بالتحلي بالسلوك المستقيم، فكر بعد ذلك مواصلة التسليح بالعلم في وقت سادته الجهل والأمية في السودان. وكان قراره بالالتحاق بالحلقات التعليمية للشيخ محمد البدوي بحي العباسية بأم درمان. وفي هذه الحلقات التعليمية أخذ الفتى من شيخه التحرير دروساً متقدمة في اللغة العربية وفروعها، والفقه الإسلامي، وعلوم القرآن. ولكن فوق ذلك انتهز الفتى الطاهر الشبلي ساحة تواجده في كنف الشيخ محمد البدوي وبين كوكبة من الدارسين من أبناء أعيان مدينة أم درمان لبناء شخصيته القيادية المتفردة. وركز على اكتساب مهارات اليقظة وطلاقة اللسان وتوسيع المدارك وشحن القدرة على الإنجاز وتنمية روح المشاركة. وكانت تزين هذه الصفات الحميدة المتعددة صفة الاستقامة.

وبالفعل فقد كانت الفترة التي قضاها الفتى الطاهر الشبلي في حلقة الشيخ محمد البدوي مرتكزاً لبناء شخصيته وتنمية مهاراته القيادية الفطرية. وسخر تلك المعارف والصفات التي اكتسبها في بلورة أفكاره وقناعاته بحمل رسالة يؤديها تجاه أهله ومجتمعه ووطنه بتسليحهم بالوعي والإدراك الذي يساعدهم على قهر المستعمر وطرده من البلاد. وترسخت في ذهنه خلال تلك الفترة رؤية قيادية حملة تعليمية وتوعوية كبرى تنطلق من مدينة أم درمان وتنداح لتتنظم كافة أرجاء الوطن لتحقيق تطلعات

¹سورة فصلت: 30.

²سورة الأحقاف: 13، 14.

³سورة هود: 112.

السودانيين في الحرية والانعقاد من برائن الظلم والاستبداد الاستعماري .

وورد في السند الصحيح المتواتر الذي رواه الأعيان والجيران والتلاميذ أن الشخصية المتفردة التي تمتع بها قد أهلته منذ سن مبكرة ليكون ملجأً لحل مشاكل الناس، مستفيداً من علمه الغزير بفقه الأحوال الشخصية واحتكاكه المبكر بعلماء وأعيان مدينة أم درمان. كما كان لشخصيته المهابة الأثر البالغ في انضباط السلوك والتزام خلق الإسلام في حي السيد المكي، والأحياء المجاورة المليئة بطلابه وعارفي مكانته السامية. وكما تمتع الشيخ الطاهر الشبلي بحب واحترام عامة الناس، الذين بادلهم نفس المشاعر، فقد احتل مكانة مرموقة وسط أقرانه من أعيان البلاد مثل السيد عبد الرحمن المهدي، والسيد علي الميرغني، والشريف الهندي، والسيد ميرغني الشيخ إسماعيل الولي. وفي إطار عرفان الناس لمكانته وقدره فقد عرض عليه منصب مشيخة العلماء بعد وفاه أستاذه الشيخ ود البدوي. وفي هذا الصدد أيضاً يكن له الوطنيون السودانيون غاية الاحترام والتقدير لرفضه الأبي لمنصب قاضى القضاة الذي عرضه المستعمر عليه الحاكم العام. ولكنه رفضه بعزة وكبرياء باعتباره خيانة عظمى لدماء والده وبقية شهداء موقعة كرري، التي سالت زكية فداء للدين والوطن، وإزكاء للمقاومة البطولية ضد المستعمر الغاشم. وبالنظر إلى هذه المكانة المرموقة التي تقلدها الشيخ الطاهر الشبلي في مدينة أم درمان، المستلهمة من شخصيته الكارزمية، ومقدرته الفارقة على التأثير على الآخرين، وبالنظر إلى الدور المحوري الذي قامت به مدينة أم درمان في تكوين الشخصية السودانية بكل أبعادها التي تشمل أساليب التفكير، والتصرف، واتخاذ القرارات، والمشاعر المتأصلة والفريدة، فإنه لمن المؤكد أن الشيخ الطاهر الشبلي كان في صدارة من أثروا تأثيراً إيجابياً في تخطيط المعالم البارزة للشخصية السودانية بمعناها المتعارف عليه اليوم، والمتمحورة حول الشجاعة والكرم والتضامن. فقد كانت هذه القيم السامية من أبرز مكونات شخصيته، حيث عمل طول حياته على غرسها في أبنائه وطلابه وجيرانه. ومن ثم انداحت هذه القيم النبيلة لتنظم كافة أنحاء الوطن نظراً للدور الريادي الكبير الذي اضطلع به تلاميذه في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تلك الفترة المهمة

من تاريخ السودان التي شهدت تربية وتكوين رواد الحركة الوطنية. ولعل أبرز تلاميذه، الذين تشربوا هذه القيم النبيلة على يديه وتعلمذ في مدرسته، الزعيم الخالد إسماعيل الأزهري، الذي قاد النضال الوطني ضد المستعمر الإنجليزي، ولعب دوراً رائداً في تحقيق استقلال البلاد في عام 1956م.

وكان للشخصية الكارزمية المشهودة التي اتسم بها الشيخ لطاهر الشبلي دوراً بارزاً في جعله من أوائل مؤسسي حزب الأمة في عام 1945م، بوصفه أحد أعيان مدينة أم درمان الذين يقطنون في قلبها النابض حي السيد المكي، الذي انطلقت منه النهضة التعليمية والسياسية والثقافية في السودان. وكان انضمام الشيخ الطاهر لمؤسسي حزب الأمة استمراراً لعلاقة والده إبراهيم الشبلي الذي رافق الإمام محمد أحمد المهدي في حملته الظافرة لتحرير الخرطوم في عام 1945م. كما كان دوره في تأسيس حزب الأمة تواصلاً وإحياءً لذكرى والده وعميه المدني والمطيب، وابن عمه الشايب الذين استبسلوا واستشهدوا في معركة كرري التاريخية ضد جيوش المستعمر الغاشم في عام 1898م. كما كان الشيخ الطاهر الشبلي في طليعة مؤسسي حزب الأمة في تقديره لعلاقته الحميمة مع نده وزميل دراسته في حلقات الشيخ محمد البدوي، السيد عبد الرحمن المهدي. وذلك فضلاً عن صلته القوية بجاره المباشر الأمير لاي عبد الله بك خليل (1892م-1971م)، الذي كان أول أمين عام لحزب الأمة. وقد أقر الشيخ الطاهر الشبلي في إيصال عضويته للحزب رقم 10502 الصادر بتاريخ 1945/4/24م، بوصفه ناظراً لمدرسة الهداية بأم درمان، أنه اطلع على دستور حزب الأمة، وقبل الاشتراك فيه والعمل بمقتضى دستوره ولوائحه وقراراته. ودفع حينها رسم الانتساب البالغ خمسة قروشٍ مصريةٍ.

إيصال المشاركة في تأسيس حزب الأمة عام 1945م

بسم الله الرحمن الرحيم
حزب الأمة

Nº 10502

السودان للسودانيين

وان هذه امّتكم امة واحدة وانا ربكم قاعبدون

١٩٤٥

لجنة الفرعية مركز مديرية
نمرة سجل العضوية

امم العضو الطاهر ابراهيم شيبان
منته ناظر عنوان
البلد مصر الاسم حسن رستم

فد اطلعت على دستور حزب الامة وقبلت الاشتراك فيه والمعمل بمقتضى
دستوره ولوائحه وقراراته . وقد دفعت رسم الانتساب وقدره خمسة غروش
مصرية بموجب الوصل بالتمرة اعلاه

التاريخ ١٩٤٥ ر ٤٤
المحل امم درمات بحضور
توقيع العضو الطاهر ابراهيم شيبان

حملة الشيخ الطاهر الشبلي الانتقامية لشهداء كرري

كان في مقدمة المقاتلين في جيش المهدي في موقعة كرري عدد من أفراد أسرة الشيخ الطاهر إبراهيم الشبلي، وعلى رأسهم والده إبراهيم، الذي أصيب في الموقعة إصابة بالغة أدت إلى استشهاده بعدها بفترة وجيزة. وظل ابنه الشيخ الطاهر يبره قبل استشهاده بالعناية بجراحه وهو لم يبلغ سن الرابعة عشرة في ذلك التاريخ. واستشهد في موقعة كرري عما الشيخ الطاهر وهما المدني الشبلي والمطيب الشبلي. وأصيب في الموقعة ابن عم الشيخ الطاهر، الشايب مصطفى الشبلي، الذي عاش متأثراً بإعاقة جسدية من نيران المستعمر الإنجليزي في تلك الموقعة، ليكون شاهد عيان على البطولات التي سجلها أهله الشجعان في أم درمان لنصرة الدين والوطن والمدينة. وقد روى الشايب الشبلي الجسارة الفائقة والثبات المذهل الذي أبداه أهله الأشاوس في الدفاع الباسل عن مدينة أم درمان في هذه الموقعة غير المتكافئة.

لقد مثلت موقعة كرري منعطفاً فارقاً في حياة الفتى الطاهر الشبلي وريادة التعليم الأهلي في السودان، حيث تعلم من الموقعة عدداً من الدروس والعبر التي ساعدته في بقية حياته ليلعب دوراً بارزاً في تشكيل تاريخ السودان الحديث. وكان أول الدروس التي تعلمها من الموقعة هو التحلي بالشجاعة والتضحية التي جسدها والده وأهله الأشداء البواسل وهم يزودون عن مدينة أم درمان في مواجهة المستعمرين. وتعلم الفتى من عدم تكافؤ السلاح بين الجانبين أن العلم هو الذي صنع الفارق بينهما في المعركة. ومن ثم وطن الشيخ الطاهر نفسه على مواصلة تعليمه إلى أقصى المراحل المتاحة حينها، وأن يسعى بكل السبل لنشر ما تعلمه على الأجيال القادمة. كما تعلم الفتى الطاهر الشبلي من موقعة كرري ونتيجتها القاسية كراهية المستعمر الغاصب، وولدت في نفسه بذرة الصمود والمقاومة للمستعمر، وكرست فيه رغبة عارمة في الانتقام والقصاص لأهله وذويه من ذلك العدو المستبد. ولعل من أبرز العبر التي تعلمها ذلك

الفتى من نتائج موقعة كرري أن المستعمر سيسعى لاستقطاب أبناء أعيان مدينة أم درمان من أمثاله لتكريس سطوته على بقية السودانيين. ومن ثم عاهد نفسه على أن أي تعاون مع الغاصبين يصب في خانة الخيانة العظمى لدماء والده وعميه المدني والمطيب الشبلي وابن عمه الشايب الشبلي الذين سقطوا في الموقعة. فقد ظل الحق على الغازي المستعمر الذي زرعه موقعة كرري في دواخل الفتى الطاهر الشبلي دفيناً، بل وزادته السنون التهاباً واشتعالاً.

وبعد أن خمدت نيران المعركة وصمت صدى دوي المكسيم وبدأت الجراح الغائرة من جراء فقدان أهله في موقعة كرري في الاندمال، التحق الفتى الطاهر الشبلي بحلقة ود البدوي ليوصل التعليم. ولكن صورة والده وهو مضرج بالدماء متأثراً بجراحه الغائرة من موقعة كرري لم تفارق مخيلته على الدوام. وكان يفكر طوال دراسته في كيفية الثأر لوالده ولبقية أفراد أسرته البواسل الذين لم ينسحب أو ينجو منهم أحد، بل ضحوا متوشحين بالدماء في شجاعة نادرة، شهد بها العدو قبل الصديق. وبعد أن أكمل الشيخ الطاهر الشبلي ورفاقه الدراسة في حلقات الشيخ محمد البدوي تم تأسيس المعهد العلمي بأم درمان عام 1912م. وتخرج معه من زملائه من أعيان أم درمان كل من السيد محمد الباقر ابن الشيخ إسماعيل الولي، والسيد عبد الرحمن محمد أحمد المهدي، والشيخ قريب الله بن أبي صالح بن أحمد الطيب، والشيخ إبراهيم أبو الزين. وفي هذه الفترة أثر بعض زملاء الفتى الطاهر الشبلي العمل في التعليم في المعهد العلمي. ولكن الطاهر الشبلي لم يشاطرهم في هذه الفكرة، لأن عقله المتقد كان يفكر في اتجاه مغاير.

وحينها استشعر الطاهر الشبلي وهو في السابع والعشرين من عمره أنه قد استكمل جميع حلقات الاستعداد العلمي والفكري والنفسي لتفجير ثورة وطنية مدوية تمكنه من تحقيق حلمه القديم في الانتقام لأهله وذويه شهداء وضحايا موقعة كرري. وترسخت في عقله الراجح فكرة الثأر والقصاص شاهراً سلاحاً أشد فتكاً بالغزاة من سيوف وحراب آبائه الأشداء، بل ومن مكسيم الأعداء. سلاحاً يغير واقع أهله

ومدينته الباسلة أم درمان ويعيد لهم ولها الكرامة والعزة والشموخ. سلاحاً يضاهي المرتكزات العلمية والفكرية للمستعمر ويزلزل أرض أم درمان وكل السودان من تحت أقدامه. وكان هذا السلاح الذي ابتكره الشيخ الطاهر للمرة الأولى في مدينة أم درمان، بل وفي السودان قاطبة، وهو في هذه السن المبكرة هو سلاح التعليم الأهلي. فكانت فكرة تأسيس مدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية في مدينة أم درمان والسودان في عام 1912م، وكأكثر الأسلحة بترأً وحسماً ليقود به حملته الانتقامية لشهداء كرري. وأدرك الشيخ الطاهر الشبلي بحسه المستنير المبكر أن نقطة الانطلاق للخلاص من الاستعمار تبدأ من تخلص أبناء الشعب من الجهل والأمية التي خيمت عليهم في ذلك الزمان. ومن ثم أخذت تختمر في ذهنه فكرة ريادة التعليم الأهلي في السودان ليكون منطلقاً لتسليح أبناء الوطن بالعلم والمعرفة والسلوك القويم بما يمكنهم من تحمل مسؤولياتهم الوطنية تجاه تحرير البلاد.

ولعله لمن الجدير بالذكر أن الدور البارز للتعليم في التحرر الوطني الذي استلهمه الشيخ الطاهر الشبلي في مطلع القرن العشرين، أي قبل نصف قرن من بداية حركات التحرر من الاستعمار في القارة الإفريقية، سار على هذا النهج الزعيم الإفريقي نيلسون مانديلا في خواتيم القرن العشرين حيث قال: «التعليم هو أقوى سلاح يمكنك استخدامه لتغيير العالم».

“Education is the most powerful weapon which you can use to change the world.” Nelson Mandela.¹

وعندما شعر المستعمرون بخطورة ما يرمي إليه الشيخ الطاهر الشبلي عليهم مستغلاً شخصيته الكارزمية الطاغية المهابة، سعوا لاستمالته لمعسكرهم بتقديم مختلف أنواع الإغراءات التي سال لها لعاب العديد من أبناء جيله. وشملت هذه الإغراءات منصب مشيخة الإسلام الذي شغل بعد وفاة أستاذه الشيخ ود البدوي. كما أرسل الحاكم العام

¹ Lighting Your 'Lighting Your Way to a Better Future', Speech delivered by N R Mandela at launch of Mindset Network, July 16, 2003.

مندوباً لمنزل الشيخ الطاهر الكائن بحي السيد المكي بأم درمان، عارضاً عليه منصب قاضي القضاة. ولكن الشيخ الطاهر الشبلي رفض بعزة وكبرياء أي منصب ينطوي على التعاون مع المستعمر الإنجليزي. واعتبر أن في تولي أي من هذه المناصب يمثل خيانة عظمى لدماء والده وبقية شهداء وضحايا موقعة كرري، التي سالت زكيةً فداءً للدين والوطن ومدينة أم درمان. كما اعتبر الشيخ الطاهر أن قبول مثل هذه المناصب يعتبر تخذيلًا ومداهنة تؤثر سلباً على المقاومة ضد المستعمر الإنجليزي التي عاهد نفسه على إزكائها بتعليم أبناء الشعب السوداني. وكان الشيخ الطاهر على يقين لا يراوده الشك بأن أحد تلاميذه الذين يتربون ويتعلمون على يديه في مدرسة الهداية سينتصب قريباً ليطوي العلم البريطاني للأبد، ويرفع مكانه علم السودان عالياً خفاً. وعند ذلك اليوم المرتجى سيهدأ بال الشيخ الطاهر بحلول ساعة الانتقام لأهله وذويه من شهداء وضحايا موقعة كرري الخالدة.

وما أن أكمل تأسيس مدرسة الهداية عامه الأول فإذا بالقدر يعجل بتحقيق أمنية الشيخ الطاهر الشبلي بأن تكون مدرسته الرائدة سراجاً منيراً يضيئ سماء السودان بنور الحرية والعزة. حيث شهد عام 1913م قيام السيد سيد أحمد الأزهري بتغيير المسار التعليمي لابنه اليافع إسماعيل الأزهري بضمه لمدرسة الهداية. وقد مثل هذا القرار المستنير نقطة فارقة في تاريخ السودان. حيث نتج عنه تنوير الطفل إسماعيل الأزهري وهو في هذه السن المبكرة بأساسيات العلوم الحديثة والرياضيات والتربية الوطنية في أول مدرسة نظامية في السودان بإشراف أحد أقوى رجالات أم درمان في ذلك الزمان الشيخ الطاهر الشبلي. فقد بث الشيخ الطاهر في تلميذه النابه إسماعيل الأزهري الحق والبغض الشديدين للمستعمر الذي خلفته تجربته الميرة في موقعة كرري.

ومن ناحية أخرى فقد ساهم انضمام إسماعيل الأزهري لمدرسة الهداية في عام 1913م مساهمة كبرى في التوثيق الدامغ للتعليم الأهلي في السودان. ذلك أن ارتباط تاريخ مدرسة الهداية بتاريخ زعيم الأمة إسماعيل الأزهري ذي السيرة الذاتية الناصعة المحفورة في وجدان الشعب السوداني قد قدم دليلاً قاطعاً لا يراوده أدنى شك

أن مدرسة الهداية الأولية التي أسسها الشيخ الطاهر الشبلي انتقاماً لشهداء كرري في عام 1912م دون أية مساعدة من المستعمر البريطاني وأعوانه، تعتبر دون منازع الأولى في مدينة أم درمان، بل وفي السودان. وكما ورد في مذكرات الشيخ بابكر بدري، أحد رواد التعليم الأهلي في السودان، فقد شهد العام 1917م تعيينه أول مفتش سوداني للتعليم في مصلحة المعارف. حيث عمل - أيضاً - كمدرس للمدارس الأولية في أولى المدارس التي أسسها الإنجليز في عام 1903م. واستمر الشيخ بابكر بدري كمفتش للتعليم في مصلحة المعارف إلى أن تقاعد في العام 1929م.

وقد كتب الشيخ بابكر بدري في مذكراته:

(كنت أفكر في السنتين الأخيرتين لإحالي للمعاش في ما أختاره من عمل أقضي فيه وقتي. فعزمت أخيراً أن أخدم أولادي في تعليم أولادهم في مدرسة أسميتها الأحفاد. وافتتحت أول فصل باسم الأحفاد بعد التصديق الرسمي من الحكومة بمدينة رفاعة في أول أبريل 1930م بسبعة وعشرين ولداً، ثمانية من أحفادي، وتسعة عشر من أولاد من تخرجوا على يدي. وقد كنت أقوم بتدريسهم بمفردي)¹.

ويؤكد ذلك أن التفكير في تأسيس مدرسة الأحفاد لتعليم أولاده وأبناء تلاميذه، كما ورد في مذكرات الشيخ بابكر بدري، لم يراوده إلا عام 1927م، حيث افتتح أول فصل برفاعة في عام 1930م وقام بتدريسهم بمفرده أي بعد انقضاء 18 عاماً على تأسيس الشيخ الطاهر الشبلي لمدرسة الهداية. إضافة إلى أن انتقال الأحفاد من رفاعة إلى مدينة أم درمان، في يناير 1932م كما ورد في مذكرات الشيخ بابكر بدري، قد أتى متأخراً عن تأسيس مدرسة الهداية الأولية بأم درمان بعشرين عاماً. وكانت

¹ بابكر بدري، حياتي.

هذه العشرين عاماً كفيلة بأن يتحصل فيها الزعيم إسماعيل الأزهرى أحد الدارسين بمدرسة الهداية على شهادة كلية غردون في الرياضيات عام 1917م، وعلى بكالوريوس الرياضيات من الجامعة الأمريكية ببيروت عام 1930م، وعلى منصب السكرتير العام لنادي الخريجين في عام 1931م الذي انطلق منه ليقود تحرير السودان من المستعمر الغاشم في عام 1956م.

وكان الشيخ الطاهر الشبلي يمني نفسه بأن يكون شاهداً لتلك اللحظة الفارقة في تاريخ الوطن التي يرفع فيها الزعيم الأزهرى أحد تلاميذه النجباء من خريجي مدرسة الهداية لواء الحرية الذي سقط والده إبراهيم وذووه شهداء فداء له في موقعة كرري. ولكن إرادة الله قدرت سقوط الشيخ الطاهر الشبلي في مكتبته شهيداً للعلم والتعليم الأهلبي في 5 ديسمبر 1948م قبل أن يرفع تلميذه المتفرد إسماعيل الأزهرى علم السودان الحر عالياً خفاقاً في 1 يناير 1956م معلناً انتصار حملة الشيخ الطاهر الشبلي الانتقامية لشهداء كرري.

تأسيس مدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية نظامية في السودان عام 1912م

تحقق الحلم الذي ظل يراود الشيخ الطاهر الشبلي منذ صبيحة معركة كرري في 2 سبتمبر 1898م بتأسيسه لمدرسة الهداية الأولية بأم درمان في العام 1912م، كأول مدرسة نظامية أهلية للبنين في أم درمان، بل وفي السودان. ويجدر بالذكر أن جيمس كري مدير مصلحة المعارف البريطاني كان قد أنشأ أول مدرسة ابتدائية تتبع لحكومة المستعمر البريطاني في أم درمان في عام 1900م، وأنشئت فيما بعد مدارس المرحلة الأولية الحكومية لتمثل بداية الهيكل التعليمي النظامي، ويلتحق الطلاب بعدها بمدارس المرحلة الابتدائية في عام 1903م. وكان هدف المستعمر البريطاني من التعليم في ذلك الوقت ينصب حول إتاحة بعض الابداعات التعليمية للسودانيين لمساعدة المستعمر في تقوية قبضته على مفاصل حكم البلاد. وتمثل ذلك في خلق طبقة من الصناع المهرة والعارفين بالقواعد الأساسية لجهاز الدولة كحفظ النظام والفصل في بعض القضايا المدنية. كما رعى التعليم إلى تدريب السودانيين لشغل الوظائف الحكومية الدنيا في جهاز الإدارة. ومن ناحية أخرى، فقد هدف المستعمر أيضاً لتدريب السودانيين للعمل في الجيش حتى تتمكن الإدارة من التخلص بالتدريج من الضباط والجنود المصريين الذين كانت صلتهم بالجنود السودانيين تؤدي في بعض الأحيان إلى التمرد تأثراً بحركات التحرير في مصر.

وفي الوقت الذي كان يفكر فيه الشيخ الطاهر الشبلي بعد معركة كرري في تأسيس مدرسة أولية لتهيئة السودانيين لمحاربة المستعمر الغاشم انتقاماً لأهله من شهداء تلك المعركة، كان اللورد كتشنر يفكر بعد شهرين من تلك المعركة في تأسيس مدرسة لتحليل ذكرى غردون باشا الذي قضى على أيدي أجداده ورفاقهم المغاوير في معركة الخرطوم في عام 1895م. ووضع اللورد كرومر حجر الأساس للمدرسة في الخامس

من يناير عام 1899م. وقام كتشنر بافتتاح كلية غردون في شكل مدرسة أولية في الثامن من نوفمبر في عام 1902م، ثم رُفِّعت لمدرسة ثانوية في عام 1905م¹. وفي هذه الأثناء قام الشيخ بابكر بدري بمساعدة من الكولونيل كورينج بأول محاولة لتعليم البنات في السودان عام 1907م وأدخل فيها بناته. ويرجح البعض أن اهتمامه بتعليم البنات حتى أصبح رائداً في هذا المجال، يُردّ لكون الله قد رزقه بثلاث عشرة بنتاً. ويجدر بالذكر أن العام الذي شهد تأسيس مدرسة الهداية بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي (1912م) قد شهد أيضاً مولد ابن الشيخ بابكر بدري، البروفيسور يوسف بدري، الذي يعرف بأنه المؤسس الفعلي لمؤسسة الأحفاد التعليمية، بعد أن استقال من عمله ككثاني صيدلي في السودان. وبحلول عام 1917م أصبح الشيخ بابكر بدري أول مفتش سوداني للتعليم في مصلحة المعارف. حيث عمل أيضاً كمدرس للمدارس الأولية في أولى المدارس التي فتحت في عهد الحكم الثنائي في البلاد عام 1903م. واستمر الشيخ بابكر بدري كمفتش للتعليم في مصلحة المعارف إلى أن تقاعد في العام 1929م².

وبعد حصول الشيخ بابكر بدري على التصديق من الحكومة البريطانية فتح أول فصل باسم الأحفاد في أول أبريل 1930م بسبعة وعشرين ولداً. وعندما تزايد عدد التلاميذ بإرسال أبناء بعض أصدقائه ومعارفه من خارج مدينة رفاعه، والتحاق بعض أولاد رفاعه بالمدرسة، وبعد أن أرسل له السيد عبد الرحمن المهدي ثلاثة من أولاده في فبراير 1931م استعان الشيخ بابكر بدري بتعيين أحد أبناء رفاعه لمساعدته في التدريس. وفي آخر عام 1930م طلب منه السيد عبد الرحمن المهدي وغيره من سكان أم درمان مثل الشيخ المفتي والشيخ اسماعيل الأزهري ومحمد أحمد البرير ومحمود صالح الشنقيطي ومحمد علي شوقي الرحيل بالمدرسة إلى أم درمان. وقد تم تحويل المدرسة لأم درمان بالفعل في يناير 1932م، وفتحت المدرسة

¹ محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (1820م-1956م)، مركز محمد عمر بشير، جامعة أم درمان الأهلية، 2005.

² ويكيبيديا الموسوعة الحرة، بابكر بدري.

بمنزل الأستاذ/ عبيد عبد النور الذى تبرع به لمدة سنتين. وتقدم الشيخ بابكر بدري في عام 1392م بطلب لإنشاء مدرسة متوسطة وتمت موافقة سلطات مصلحة المعارف وبدأت الدراسة في أوائل عام 1933م. وعندما عزم الشيخ على بناء المدرسة في قطعة أرض منحت له من الحكومة البريطانية، قرر تكوين مجلس للأمناء من الإداريين محمد صالح الشنقيطي سكرتيراً للمجلس والبكباشي أحمد عقيل، ومن رجال المال الشيخ صديق عيسى وعبد المنعم محمد ومصطفى أبو العلا والشيخ عثمان صالح والشيخ دفع الله شببكة. ومن الفنانين إبراهيم أحمد ومحمد عثمان ميرغني وعبيد عبد النور وأحمد محمد صالح وبابكر بدري. وفي عام 1947م بدأ الشيخ بابكر بدري بتأسيس القسم الثانوي. وفي ديسمبر 1947م بدأ الشيخ بابكر بدري طوافه على أقاليم السودان لجمع التبرعات لبناء القسم الثانوي والأوسط الذى قدرت تكلفه بنحو 45 ألف جنيه وأرسل مندوبين إلى الأماكن التي لم يستطع ان يصل إليها بنفسه، فلم تبقى تقريباً مدينة من مدن القطر إلا وقد أسهمت بنصيب في بناء المدرسة. وتمكّن الشيخ في ذلك الطواف ما بلغ مقداره 22 ألف جنيه، وتبرعت الحكومة البريطانية بمبلغ 23 ألف جنيه، واستطاع الشيخ بابكر بدري بهذين المبلغين تشييد المدرسة¹.

ويبين هذا السرد التاريخي الموثق في المذكرات الشخصية المنشورة للشيخ بابكر بدري أن مدرسة البنات التي تأسست في عام 1907م بمدينة رفاعة لم تكن مدرسة نظامية بالمعنى المعروف، بل كانت حلقات دراسية هي الأولى من نوعها في السودان لتعليم البنات، تضم بناته. وكانت هذه الحلقات شبيهة بحلقات الشيخ محمد البدوي بحي العباسية بأم درمان والتي استمرت خلال الفترة 1898م-1911م. كما تفيد مذكراته الشخصية أن الشيخ الجليل بدأ يفكر في تأسيس مدرسة نظامية يقضي فيها وقته في السنتين الأخيرتين لإحالاته للمعاش في عام 1927م. وحينها فكر في تأسيس مدرسة الأحفاد الأسرية بهدف خدمة أولاده في تعليم أولادهم. وبالفعل تحصل الشيخ

¹ معتمد الحاج : التعليم الأهلي في أم درمان.

الجليل على تصديق لتأسيس مدرسة نظامية للمرة الأولى في أبريل 1930م. وبدأت المدرسة بسبعة وعشرين ولداً، ثمانية من أحفاده، وتسعة عشر من أولاد من تخرجوا على يديه عندما كان مفتشاً في مصلحة المعارف، ومعلماً في المدارس البريطانية خلال الفترة 1917م-1929م. وقد كان الشيخ بابكر بدري يقوم بتدريسهم بمفرده، كما ذكر في مذكراته، مما يؤكد أيضاً أن العملية التعليمية كانت أقرب للحلقات الدراسية منها للتعليم المدرسي النظامي. ولم يحتاج الشيخ بابكر بدري لمن يساعده في التدريس إلا بعد أن أرسل له السيد عبد الرحمن المهدي ثلاثة من أولاده في فبراير 1931م ليتعلموا منه. وحينها فقط استعان بأحد أبناء رفاة ليساعده في التدريس. وكان ذلك قبل أقل من عام واحد فقط من الانتقال بالمدرسة لمدينة أم درمان في يناير عام 1932م استجابةً لطلب بعض أعيان المدينة. وهذا يعني أن الكيان التعليمي الذي أسسه الشيخ بابكر بدري لم يرقَ لدرجة المدرسة النظامية بعد عند انتقاله لمدينة أم درمان في يناير عام 1932م. بل كان الأقرب لحلقات دراسية لنحو سبعة وعشرين طالباً يمثلون أحفاد الشيخ الجليل وأبناء معارفه ممن تعلموا على يديه عندما كان معلماً في المدارس الحكومية البريطانية.

وتفيد الشواهد التاريخية الموثقة أن عام 1932م الذي شهد انتقال الشيخ بابكر بدري بالأحفاد إلى مدينة أم درمان للمرة الأولى، كان قد شهد انقضاء عشرين عاماً على تأسيس الشيخ الطاهر الشبلي لمدرسة الهداية الأولية كأول مدرسة أهلية نظامية في أم درمان، بل وفي كافة أرجاء السودان. وكما سبق ذكره فقد استشعر الشيخ الطاهر الشبلي بعد إكماله الدراسة في حلقات الشيخ محمد البدوي، وهو لم يتجاوز حينها السابع والعشرين من عمره، أنه قد استكمل جميع حلقات الاستعداد العلمي والفكري والنفسي لتفجير ثورة وطنية مدوية تمكنه من تحقيق حلمه القديم في الثأر لأهله وأبناء وطنه من شهداء وضحايا معركة كرري التاريخية. وترسخت في عقله الراجح الوقاد فكرة الانتقام من المستعمر البريطاني شاهراً سلاحاً أشد فتكاً بالغزاة من سيوف

وحراب الأباء ليغير واقع أهله ومدينته الباسلة أم درمان ويعيد لهم ولها الكرامة والعزة التي سلبها المستعمر الغاشم. وكان تأسيس مدرسة الهداية الأولية في عام 1912م كأول مدرسة أهلية في مدينة أم درمان، بل وفي السودان، كأمضى سلاح يقود به حملته الانتقامية لشهداء كرري. ومن ثم أسس أول مدرسة نظامية ابتدائية في السودان لتكون منطلقاً لتسليح أبناء الوطن بالعلم والمعرفة والسلوك القويم بما يمكنهم من تحمل مسؤولياتهم الوطنية تجاه البلاد.

التحاق الزعيم الأزهرى بمدرسة الهداية عام 1913م

وعند إكمال مدرسة الهداية الأولية لعامها الأول ودخولها في عامها الثاني في عام 1913م فإذا بالقدر يعجل بتحقيق أمنية الشيخ الطاهر الشبلي بأن تكون مدرسته الوليدة سراجاً منيراً يضيئ سماء الوطن بنور الحرية والعزة. ذلك أن هذا العام شهد العودة المفاجئة للسيد سيد أحمد الأزهرى، والد الزعيم الأزهرى، لأم درمان من مصر بعد أن أقام فيها فترة من حياته لنيل الدرجة العالمية من الأزهر الشريف. وقد أسهمت عودة السيد سيد أحمد الأزهرى في تغيير المسار التعليمي للطفل إسماعيل الأزهرى، إذ عدل والده فكرة إلحاقه بالمعهد العلمي التي تبنتها بقية الأسرة في غياب الوالد. وفور عودته من مصر في العام 1913م قام والد الطفل إسماعيل الأزهرى، الذي كان عمره حينها اثنتي عشرة سنة، بإدخال ابنه مدرسة الهداية الأولية التي أسسها الشيخ الطاهر الشبلي توأماً في عام 1912م. وقد مثل هذا القرار الجريء والحصيف للسيد سيد أحمد الأزهرى المتعلق بتعليم ابنه إسماعيل نقطة فارقة في تاريخ السودان لجملة من الاعتبارات. ولعل أول هذه الاعتبارات أن هذا القرار السديد قد نتج عنه تنوير الطفل إسماعيل الأزهرى وهو في هذه السن المبكرة بأساسيات العلوم الحديثة والرياضيات والتربية الوطنية في أول مدرسة نظامية في السودان بإشراف أحد أقوى رجالات أم درمان في ذلك الزمان - الشيخ الطاهر الشبلي. فقد بث الشيخ الطاهر في تلميذه النابه الحق والبغض الشديدين للمستعمر الذي أججته تجربته المريرة في موقعة كرري.

ويتمثل ثاني الاعتبارات المتعلقة بالتحاق إسماعيل الأزهرى بمدرسة الهداية عوضاً عن المعهد العلمي أن العلوم الحديثة التي تلقاها الأزهرى في المدرسة قد غيرت مجرى حياته. فقد هيأته تجربته في مدرسة الهداية لالتحاقه لاحقاً في عام 1917م بقسم المعلمين في كلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم لاحقاً) التي درس فيها الرياضيات وتخرج فيها عام 1921م. ثم أرسل للدراسة ببلبنان فعاد منها عام 1930م بدرجة البكالوريوس في

الرياضيات من الجامعة الأميركية ببيروت. وغني عن القول أن هذه المعارف التي حصل عليها إسماعيل الأزهري بعد مدرسة الهداية والتي كان لها الأثر البالغ في شحذ حسه الوطني لم يكن ليتحصل عليها لو سلك طريق الدراسة في المعهد العلمي¹.

أما الاعتبار الثالث والذي لا يقل أهمية عن سابقه، أن قرار والد إسماعيل الأزهري بإلحاقه بمدرسة الهداية الأولية قد ساهم مساهمة قيمة في التوثيق للتعليم الأهلي في السودان وأزال الغيوم التي خيمت على التسلسل التاريخي الأمين لتأسيس المدارس الأهلية في السودان. ذلك أن هذا القرار قد وثق بجلاء للارتباط الوثيق بين تاريخ تأسيس مدرسة الهداية الأولية لمؤسسها الشيخ الطاهر الشبلي في عام 1912م بالتاريخ التعليمي لزعيم الأمة إسماعيل الأزهري ذي السيرة الذاتية الناصعة المحفورة في وجدان الشعب السوداني والتي ظل يتوارثها جيلاً بعد جيل. وقد قدم هذا دليلاً قاطعاً لا يراوده أدنى شك أن مدرسة الهداية الأولية التي أسسها الشيخ الطاهر الشبلي في عام 1912م بجهد أهلي خالص ودون أية مساعدة من المستعمر البريطاني وأعوانه، تعتبر دون منازع الأولى في مدينة أم درمان، بل وفي السودان. ذلك أن انتقال مدرسة الأحفاد إلى مدينة أم درمان، الذي لم يتم إلا في يناير 1932م كما ورد في مذكرات الشيخ بابكر بدري، قد أتى متأخراً عن تأسيس مدرسة الهداية الأولية بعشرين عاماً. وكانت هذه العشرين عاماً كفيلة بأن يتحصل فيها أحد الدارسين بمدرسة الهداية (إسماعيل الأزهري) على شهادة كلية غردون في الرياضيات عام 1917م، وعلى بكالوريوس الرياضيات من الجامعة الأميركية ببيروت عام 1930م، وعلى منصب السكرتير العام لنادي الخريجين في عام 1931م الذي انطلق منه ليقود تحرير السودان من المستعمر الغاشم².

وعليه فإن هذا الجهد في إعادة زيارة النصوص التوثيقية غير الدقيقة المتداولة حول تاريخ التعليم الأهلي في السودان قد رمى فيما رمى للوصول للحقيقة بالموضوعية

¹ موسوعة الجزيرة فقضااء المعرفة الرقمية <http://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons>

² موسوعة الجزيرة فقضااء المعرفة الرقمية <http://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons>

والتجرد اللازمين عن طريق فحص وتحليل الأحداث والوثائق المتصلة بها، وتقديم البدائل المستندة على أدلة موثقة ومتماسكة دون إفراط أو تفريط.

ولعل المتتبع الحصيف لهذا الرصد الموضوعي لتاريخ التعليم الأهلي في السودان يلحظ دون عناء القدر الذي يتعين للأمة السودانية أن تدين به من التقدير والعرفان لنفر متفرد من شخوصها الأفاضل الذين لعبوا دوراً محورياً في رسم المعالم البارزة للسودان، وقدموا مساهمات استثنائية أثرت جوهرياً في تكوين الشخصية الاعتبارية لشعبه، ووضعوا اللبنة الأساسية لنهضته وشموخه. ذلك أن الأمة السودانية يجب أن تحرص على أن تظل سيرة هؤلاء النفر الأفاضل المتفردين حيّة متوهجة ينداح ألقيها وضياؤها لينير طريق العزة والسؤدد للأجيال المتعاقبة. وتشير الشواهد الموثقة إلى أن الدور التعليمي الريادي الذي لعبه الشيخ الطاهر الشبلي في رسم معالم السودان الحديث وتكوين الشخصية السودانية بمكوناتها الحالية، يؤهله بامتياز لصدارة أبناء هذا الوطن الذين استحقوا بجداره أن تحفر الأمة السودانية سيرتهم الناصعة الزاهية في ذاكرتها السرمدية. وليس أدلّ على ذلك من دوره المحوري في تأسيس مدينة أمدرمان، وريادة التعليم الأهلي في السودان بتأسيس مدرسة الهداية الأولى في عام 1912م، وتعليم رواد الحركة الوطنية والفكرية وعلى رأسهم قائد الاستقلال، الزعيم الخالد إسماعيل الأزهرى. كما كان للشيخ الطاهر الشبلي دوراً طليعياً في تكوين الشخصية السودانية المتعارف عليها اليوم بجميع صفاتها الحميدة المشهودة إقليمياً وعالمياً.

ولعله لمن الضروري التأكيد على أن الدعوة الملحة لإعادة زيارة النصوص التوثيقية غير الدقيقة المتداولة حول تاريخ التعليم الأهلي في السودان لإنصاف الشيخ الطاهر الشبلي وإبراز دوره الرائد في تأسيس التعليم الأهلي في السودان، لا ينتقص بأي حال من الأحوال الدور الطليعي والريادي الذي قام به الشيخ بابكر بدري في تعليم المرأة السودانية، ومساهماته الرائدة في تهيئتها حتى تقلدت المناصب القيادية الحالية في السعي للنهوض بالوطن.

المفهوم التعليمي والتربوي لمدرسة الهداية

قام الشيخ الطاهر الشبلي بالخطوة الجريئة بتأسيس أول مدرسة أهلية في مدينة أم درمان والسودان قبل أكثر من قرن من الزمان، حين كان العدد المحدود من السودانيين غير الأميين يكتفون بدخول الخلاوي التي اقتصر على تعليم اللغة العربية والفقه الاسلامي وعلوم القرآن والحديث. وكان العدد المحدود من أصحاب الخطوة الذين دخلوا مدرسة غردون التي أسسها المستعمر في عام 1902م يقتصر تعليمهم في المجال الحرفي والمعرفة السطحية بالقواعد الأولية للوظائف الإدارية الدنيا أو الرتب العسكرية الصغرى. وبالنظر إلى البيئة التي أنشئت فيها مدرسة الهداية، والتي تقارب فيها نسبة الأمية بين السودانيين 100%، فإن الدور الذي قامت به المدرسة في تأسيس المضامين العصرية للمعرفة والوعي المستنير لمجابهة الاستعمار في ذلك الزمن البعيد، يضاهي الدور الذي تقوم به أكبر الجامعات في هذا الزمان.

ونظراً لأن الشيخ الطاهر الشبلي لم يكن يمتلك موقعاً يؤسس عليه مدرسة الهداية في ذلك الوقت، فقد بدأها بمبنى مؤجر يعرف حينه بعمارة نعيم شندي الواقعة في نهاية شارع السيد علي عند المدخل الشرقي لسوق أم درمان. ثم انتقلت مدرسة الهداية إلى مقرها الثاني الذي يقع في شارع السيد علي قرب سوق أم درمان ويقع في الجهة الجنوبية للشارع. وبعد ذلك نقل الشيخ الطاهر مدرسة الهداية إلى منزل مؤجر بشارع الخليفة قبالة مسجد الأمين الصائغ. واستمرت في هذا الموقع حتى عام 1922م حين قام بتشبيد المدرسة أمام منزله الكائن بشارع السيد علي بحي السيد المكي. وكانت المدرسة تتكون من أربعة فصول وصالة كبيرة تضم مكتب الناظر والمدرسين. ولعله لمن المهم الإشارة إلى أن هذه الصالة كانت تتسع أيضاً لتلاميذ المرحلة التحضيرية (الروضة). وخلافاً لاعتقاد الكثيرين بأن مرحلة الروضة قد بدأت حديثاً في السودان، فإن الشيخ الطاهر الشبلي قد اهتم بهذه المرحلة من تعليم الأطفال منذ عام 1922م.

وكانت مدرسة الهداية تقبل الأطفال للروضة وهم في سن السادسة، وعند بلوغهم سن السابعة، يلتحقون بالفصل الأول بالمدرسة.

وظلت المدرسة تتلقى إعانة سنوية من مصلحة المعارف بلغت خمسة عشر جنيهاً حتى عام 1939م. وفي ذلك العام تحولت هذه الإعانة إلى الميزانية المحلية لبلدية أم درمان حين تمت زيادتها إلى أربعة وعشرين جنيهاً سنوياً لمقابلة جزء من مرتبات المدرسين¹.

تمثلت رؤية مدرسة الهداية عند تأسيسها في عام 1912م في خلق سودان حر مستقل يستلهم نزعة التحرر والانعقاد من المبادئ الرصينة للثورة المهدية، ويستمد الدروس والعبر من معركة كرري التاريخية التي سقط فيها أباه وعماه شهداء من أجل كرامة الوطن. وتجسدت رسالة المدرسة عند تأسيسها في تربية وتعليم جيل جديد من أبناء السودان مدججين بالمعارف الحديثة التي تمكنهم من قيادة الأمة نحو تحقيق الحرية لوطنهم وأهلهم وذويهم. كما تضمنت رسالة المدرسة نشر الوعي بين التلاميذ وذويهم بالأهداف الفعلية للمستعمرين الغزاة في محاربة دينهم وثقافتهم وتراثهم، والظفر بمقدراتهم وممتلكاتهم. وفوق ذلك كانت رسالة المدرسة تنطوي على غرس الحس الوطني لدى التلاميذ وذويهم وحضهم وتحريضهم لاغتنام كل السوانح لمقاومة المستعمر، والاستعداد للانقضاض عليه والتخلص منه.

وفي إطار سعيه الدؤوب لتحقيق رؤية المدرسة السامية وتبليغ رسالتها الجليلة، انتهج الشيخ الطاهر الشبلي نهجاً تربوياً صارماً في تربية وتعليم التلاميذ. وقد استمد هذا النهج من قناعاته الراسخة بأن الاستقامة والانضباط يمثلان المرتكز الأساسي لتكوين جيل قوي قادر على تحمل الأعباء الكبيرة والتحديات الجسيمة التي ستواجهه في المعركة القادمة للتحرير والانعقاد. وقد اكتسب الشيخ الطاهر الشبلي هذا النهج الحازم من البيئة الأسرية التي وُلد وتربى فيها وظفر منها بقوة الشخصية، ورباطة الجأش،

¹ محمد خير عثمان، قصة التعليم الأهلي في السودان، الخرطوم، العدد 7، السنة الأولى، أبريل 1966م، وسعاد عبدالعزيز أحمد، قضايا التعليم الأهلي في السودان.

ومضاء العزيمة، ومكارم الأخلاق، واستقامة السلوك، ووضوح الرؤية، والنزعة العارمة للانتقام من المستعمر. وكان لتوافق ميلاده مع فتح مدينة الخرطوم على يد أنصار الإمام محمد أحمد المهدي في عام 1885م، الأثر الكبير على البيئة الأسرية التي شهدت طفولته. فقد ترعرع في مناخ أُسري تُخيم عليه عزة النفس وشموخ الانتصار الباهر على المستعمر الإنجليزي الذي شارك فيه والده إبراهيم وعمّاه الشجاعان المدني والمطيب.

الرسالة:

- تنمية مهارات الطالب العلمية والتقنية والخلقية والبدنية.
- حض الطلاب على تعظيم قيمة العمل الفردي والجماعي.
- تزويد الطلاب بمهارات ومعارف وقيم الحياة العصرية.
- تشجيع الطلاب على التعليم الذاتي والتفاعل مع أنشطة المدرسة الصفية واللاصفية.
- توفير البيئة المناسبة للطلاب المبدعين والموهبين وتنمية قدراتهم الإبداعية والقيادية.
- استخدام معينات وأدوات التعليم والتربية الحديثة.
- توثيق الصلة بين المدرسة وأسر الطلاب، والمجتمع المحلي، والوطن.

القيم :

مثل التسليح بالعلم والتحلي بمكارم الأخلاق والاستقامة البوصلة الأخلاقية لمدرسة الهداية. وانعكس ذلك جلياً في مناهجها وبرامجها التعليمية والتربوية. وأدت المدرسة رسالتها الوطنية والتعليمية والتربوية السامية مسنودة بقيمتها الراسخة، ومجدها التليد، المرتكز على أعلى مستوى من النزاهة والثقافة المهنية والأخلاقية، والسعي المستدام للتفوق. وتتجسد قيم المدرسة في احترامها وتعاونها مع جميع الشركاء وأصحاب المصلحة في تعظيم قيمة العلم والعمل والخلق القويم. وقد رسخ هذه القيم الشخصية الكاريزمية الفذة لمؤسس مدرسة الهداية، الشيخ الطاهر الشبلي، ومكانته المحترمة والمهابة من جميع من حوله.

توجيه ونصح الطلاب:

- قامت إدارة المدرسة بالتعاون مع أولياء الأمور بتقديم النصح والمشورة للطلاب في كافة الأمور المتعلقة بالالتحاق بالمدرسة، والشؤون العلمية، والتربوية، والمستقبل التعليمي والمهني. ولعل أبرز ثمرات هذا النهج التربوي الغرس المبكر الذي قامت به المدرسة في تكوين الشخصية القيادية المتفردة للزعيم الأزهري أثناء فترة دراسته فيها.

النظار التاريخيون لمدرسة الهداية:

تولى الشيخ الطاهر الشبلي منصب الناظر المؤسس للمدرسة لمدة امتدت لست وثلاثين سنة وذلك خلال الفترة 1912م-1948م. وقد قام خلال هذه الفترة بالإشراف على تربية وتعليم نحو خمسة آلاف تلميذ مثلوا - كل في مجاله - الشعلة الأولى التي أضاءت طريق الحرية والانعتاق من المستعمر البريطاني. كما شكلوا بعد الاستقلال النواة الأولى لتحمل أبناء السودان لشؤون وطنهم الحر. وقد تصدر هذه النخبة المتفردة من تلاميذ الشيخ الطاهر الشبلي الزعيم الخالد اسماعيل الأزهري، الذي رفع علم السودان المستقل في الأول من يناير 1956م. وخلف الشيخ الطاهر الشبلي بعد وفاته في عام 1948م، الشيخ عبدالله عبدالماجد، والد الشيخ الصادق عبدالله عبدالماجد القيادي الإسلامي المعروف، وذلك خلال الفترة 1949م-1957م. وبعد ذلك تسلم منصب ناظر المدرسة الأستاذ خالد أبوالروس الذي عمل ناظراً للمدرسة خلال الفترة 1958-1962م. وخلفه الأستاذ برعي محمدالبشير خلال الفترة 1963 - 1973م ، ثم الأستاذ مأمون مكّي أبو حراز حتى عام 1976م.

خارطة المدرسة:

اتبع الشيخ الطاهر الشبلي أسلوباً هندسياً مبسطاً لتشييد مدرسة الهداية في حي السيد المكي العريق، حيث شُيّد مبنىً تبلغ مساحته نحو 200 متر مربع. ويتوسط المبنى صالة كبيرة خصصها لمكتبه ومكاتب الأساتذة. كما خصص جزءاً منها لأطفال فصل الروضة. وتطل هذه الصالة على الفصول الدراسية الأربعة: الفصلان الأول والثاني غرب الصالة، والفصلان الثالث والرابع شرق الصالة. ويحيط بمبنى المدرسة فضاء من كافة الجهات شُيّد في أركانه المزيّرة (مكان أزيار الشرب) والحمامات. وكان هذا الفناء كافياً لاصطفاف التلاميذ في الطابور الصباحي الذي تتأكد فيه إدارة المدرسة من مواظبتهم على الدراسة وتقف على التزامهم بالزي المدرسي الذي كان «جلاية» بيضاء. وكانت الإدارة شديدة الحرص على نظافة الزي المدرسي والملابس الداخلية للتلاميذ ولا تتوانى في تنفيذ العقوبة اللازمة لمخالفة ذلك. وحرص الشيخ الطاهر على أن يكون المبنى عالياً يناهز الأربعة أمتار للمحافظة على برودة الفصول والصالة. وتم تقسيم المبنى بحوائط يبلغ سمكها نحو 50 سنتيمتراً لعزل الصوت والحرارة. وكانت تحيط بالمدرسة من الداخل عائلة الشيخ الطاهر حيث سكن في المنزل المجاور للمدرسة من الناحية الشرقية أبناء زوجته الأولى - زينب الطاهر الشبلي. وسكن في المنزل المجاور للمدرسة من الناحية الجنوبية أبناء زوجته الثالثة - أمّنة نوري. ويوجد شرق المدرسة على بعد نحو عشرين متراً ميدان «الحديد» الذي كان يستغله الطلاب في لعب كرة القدم والمناشط الرياضية الأخرى. ويجدر بالذكر أن تدريب التلاميذ في هذا الميدان على يد اللاعب الدولي رابع رمضان قد مكن المدرسة من إحراز كأس المدارس لعدة سنوات خلال خمسينات وستينات القرن العشرين.

نظار مدرسة الهداية (1912-1976م)



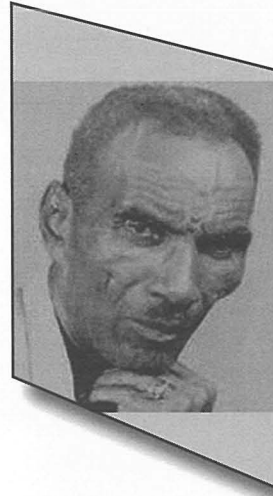
الشيخ عبد الله عبد المجيد (1912-1948م)



الشيخ الطاهر الشبلي (1912-1948م)



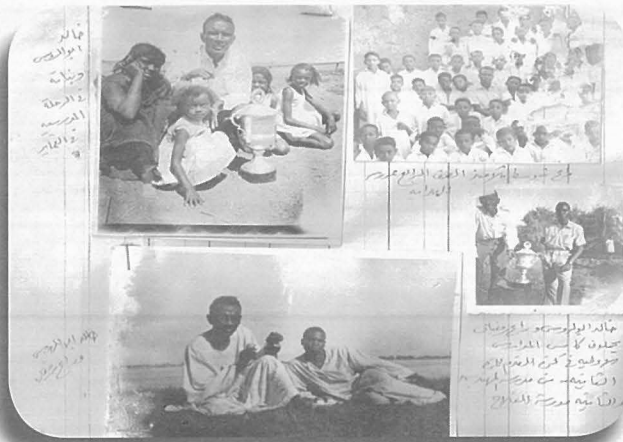
الأستاذ برعي محمد البشير (1963-1973م)



الأستاذ خالد أبو الروس (1958-1962م)



الأستاذ مأمون مكّي أبو حراز (1974-1976م)

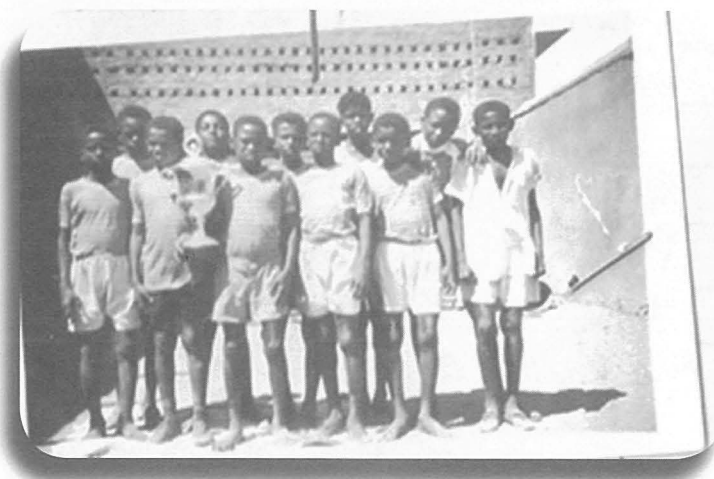


جانب من أسرة مدرسة الهداية 1959م



بعض مدرسي مدرسة الهداية في عام 1959م

فريق كرة القدم بمدرسة الهداية الحائز على كأس المدارس في عام 1960م



التوسل وتصوف الشيخ الطاهر الشبلي

حرص الشيخ الطاهر الشبلي على أن تبدأ الدراسة يومياً في الصباح الباكر بحيث يقرأ التلاميذ سورة الفاتحة، ويختتم اليوم الدراسي ببعض الأبيات من التوسل (الدعاء الناصري). والتوسل هو أحد طرق الدعاء عند الصوفية، وباب من أبواب التوجه إلى الله، والمتوسل به إنما هو واسطة ووسيلة للتقرب إلى الله، والتوسل يكون بالأنبياء أو الأولياء، أو يكون بالأعمال الصالحة للإنسان، وأعظم هذه الوسائل هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ويعكس حرص الشيخ الطاهر على التوسل نزعته الصوفية التي انعكست على شخصيته وأسلوب حياته. وتجلت سمات الصوفي في شخصية الشيخ الطاهر حيث كان أميناً على الأمانة، بعيداً عن الخيانة، كثير التحمل، كثير الصلوات والصيام يحتفل بالضيفان بخاصة أهله من ود العباس وسنجة والربوة.

وقد مثل التوسل بالنسبة للشيخ الطاهر وسيلة للبركة عن طريق الأسباب الشرعية بالتوجه لله سبحانه وتعالى، مستدلاً بالقصص الكثيرة الواردة بتبرك الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم بشعره وعرقه ودمه ولعابه وموضع صلاته. وكان يعتقد أن استفتاح التلاميذ ليومهم بقراءة التوسل بعد سورة الفاتحة تجلب لهم البركة وتقضي الحاجات ولو بعد حين. وصاحب التوسل الذي كان يردده تلاميذه هو العلامة الفقيه محمد بن محمد بن أحمد بن الحسين بن ناصر الدرعي المغربي (1602م-1676م). وهو من أشهر صوفية عصره وأبركهم. وكان شديد الاتباع للسنة في سائر أحواله وعاداته، أخذ عنه وتلمذ على يديه خلق كثير، وله أدعية أخرى وصلوات غير هذا التوسل الذي استخدمه الشيخ الطاهر الشبلي. وقد تجسد في هذا التوسل الجمع القصدي بين العلم والعمل، ونشر قيم الصلاح والفضيلة بحثاً عن القيم التي ترتقي بالإنسان. ونظراً لطول التوسل، فقد كان الشيخ الطاهر يكتفي بأن يردد تلاميذه الستة أبيات الأولى منه كل يوم: وفيما يلي نص التوسل:

يَا مَنْ إِلَى رَحْمَتِهِ الْمَفْرَةُ
وَيَا قَرِيبَ الْعَفْوِ يَا مَوْلَاهُ
بِكَ اسْتَغْنَيْنَا يَا مُغِيثَ الضُّعْفَا
فَلَا أَجَلَ مِنْ جَلِيلِ قُدْرَتِكَ
لِقَهْرٍ مُلْكِكَ الْمُلُوكِ تَخَضَعُ
وَالْأَمْرِ كُلُّهُ إِلَيْكَ رَدُّهُ
وَقَدْ بَسَطْنَا أَمْرَنَا لَدَيْكَ
فَارْحَمْنَا يَا مَنْ لَا يَزَالُ عَالِمًا
وَانْظُرْ إِلَى مَا مَسَّنَا بَيْنَ الْوَرَى
وَنَحْنُ يَا مَنْ مُلْكُهُ لَا يُسْلَبُ
إِلَيْكَ يَا غَوْثَ الذَّلِيلِ نَسْتَنْدُ
مِنْكَ الْعِنَايَةَ الَّتِي لَا نَرْتَجِي
أَنْتَ الَّذِي تَهْدِي إِذَا ضَلَلْنَا
يَا وَاسِعَ الْإِحْسَانِ يَا مَنْ خَيْرُهُ
وَسَعَتْ كُلُّ مَا خَلَقْتَ عِلْمًا
وَقَدْ مَدَدْنَا رَبَّنَا الْأَكْفَا
فَأَبْدِلِ اللَّهُمَّ حَالَ الْعُسْرِ
وَأَجْعَلْ لَنَا عَلَى الْبُغَاةِ الْغَلْبَةَ
وَأَنْصُرْ حِمَانًا يَا قَوِيَّ نَصْرًا
وَأَعْكُسْ مُرَادَهُمْ وَخَيِّبْ سَعْيَهُمْ
وَعَجِّلِ اللَّهُمَّ فِيهِمْ نَقْمَتَكَ
وَكُنْ لَنَا وَلَا تَكُنْ عَلَيْنَا
يَا رَبَّ يَا رَبَّ بِكَ التَّوَسُّلُ
يَا رَبَّ أَنْتَ رُكْنُنَا الرَّفِيعُ

وَمَنْ إِلَيْهِ يُلْجَأُ الْمُضْطَرُّ
وَيَا مُجِيبَ كُلِّ مَنْ دَعَاهُ
فَحَسْبُنَا يَا رَبَّ أَنْتَ وَكَفَى
وَلَا أَعِزُّ مِنْ عَزِيزِ سَطَوَاتِكَ
تَخْفَضُ رَغْمًا مِنْ تَشَاءُ وَتَرْفَعُ
وَبِيَدَيْكَ حَلُّهُ وَعَقْدُهُ
وَقَدْ شَكُونَا ضَعْفَنَا إِلَيْكَ
بِضَعْفِنَا وَلَا يَزَالُ رَاحِمًا
فَحَالُنَا مِنْ بَيْنِهِمْ كَمَا تَرَى
لُذْنَا بِجَاهِكَ الَّذِي لَا يُغْلَبُ
عَلَيْكَ يَا كَهْفَ الضَّعِيفِ نَعْتَمِدُ
حِمَايَةَ مَنْ غَيْرَ بَابِهَا تَجِي
أَنْتَ الَّذِي تَعْفُو إِذَا زَلَلْنَا
عَمَّ الْوَرَى وَلَا يَنَادِي غَيْرُهُ
وَرَأْفَةً وَرَحْمَةً وَحِلْمًا
وَمِنْكَ رَبَّنَا رَجَوْنَا اللَّطْفَا
بِالْيُسْرِ وَأَمَدَدْنَا بِرِيحِ النَّصْرِ
وَأَقْصُرْ أَذَى الشَّرِّ عَلَى مَنْ طَلَبَهُ
وَأَقْهَرْ عِدَانَا يَا عَزِيزُ قَهْرًا
وَاهْزِمْ جُمُوعَهُمْ وَأَفْسِدْ رَأْيَهُمْ
فَإِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ قُدْرَتَكَ
وَلَا تَكْلُنَا طَرْفَةً إِلَيْنَا
لِمَا لَدَيْكَ وَبِكَ التَّوَصُّلُ
يَا رَبَّ أَنْتَ حِصْنُنَا الْمَنِيعُ

يَا رَبِّ يَا رَبِّ أَنْلْنَا الْأَمْنَا
وَأَجْعَلْ بَصَادَ وَبِقَافٍ وَبِنُونٍ
بِجَاهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَجَاهِ مَا بِهِ دَعَاكَ الْأَنْبِيَا
وَجَاهِ كُلِّ مَنْ رَفَعَتْ قَدْرَهُ
وَجَاهِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُحْكَمِ
رَبِّ دَعْوَنَّاكَ دُعَاءَ مَنْ دَعَا
فَاقْبَلْ دُعَاءَنَا بِمَحْضِ الْفَضْلِ
وَأَمْنُنْ عَلَيْنَا مَنَّةَ الْكَرِيمِ
وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا يَا رَحِيمُ رَحْمَتَكَ
وَحَرِّ لَنَا فِي سَائِرِ الْأَقْوَالِ
وَأَجْمَعْ لَنَا مَا بَيْنَ عِلْمٍ وَعَمَلٍ
وَأَنْهَجْ بِنَا يَا رَبِّ نَهْجَ السَّعْدَا
وَأَصْلِحْ اللَّهُمَّ حَالَ الْأَهْلِ
وَأَقْضِ لَنَا أَغْرَاضَنَا الْمُخْتَلَفَةَ
يَا رَبِّ وَأَنْصُرْ دِينَنَا الْمُحَمَّدِي
وَأَعْفُ وَعَافٍ وَكَفٍ وَاعْفُ ذُنُبَنَا
وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى الْمُخْتَارِ
صَلَاتِكَ الَّتِي تَفِي بِقَدْرِهِ
ثُمَّ عَلَى الْآلِ الْكَرَامِ وَعَلَى
وَبَارِكْ اللَّهُمَّ مَوْلَانَا الْوَلِيِّ
كَذَلِكَ صَاحِبَا الْمَقَامِ الطَّاهِرِ
وَعُمِّ بِالرَّحْمَةِ أَهْلَ السُّلْسَلَةِ
وُخْصَ بِالرِّضَا وَبِالْإِحْسَانِ

إِذَا ارْتَحَلْنَا وَإِذَا أَقْمَنَا
أَلْفِي حِجَابٍ مِنْ وَرَائِنَا تَكُونُ
وَجَاهِ خَيْرَ الْخَلْقِ يَا رَبَّاهُ
وَجَاهِ مَا بِهِ دَعَاكَ الْأَوَّلِيَا
مَنْ سَتَرْتَ أَوْ أَشَعْتَ ذِكْرَهُ
وَجَاهِ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ الْمُعْظَمِ
رَبِّا كَرِيمًا لَا يَرُدُّ مَنْ سَعَى
قُبُولَ مَنْ أَلْقَى حِسَابَ الْعَدْلِ
وَأَعْطِفْ عَلَيْنَا عَطْفَةَ الْحَلِيمِ
وَأَبْسُطْ عَلَيْنَا يَا كَرِيمُ نِعْمَتَكَ
وَاخْتَرْ لَنَا فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ
وَأَصْرِفْ إِلَى دَارِ الْبَقَا مَنَّا الْأَمَلَ
وَاخْتَمِمْ لَنَا يَا رَبِّ خَتَمَ الشَّهَادَا
وَيَسِّرْ اللَّهُمَّ جَمْعَ الشُّمْلِ
فِيكَ وَعَرَفْنَا تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ
وَأَجْعَلْ خَتَامَ عِزِّهِ كَمَا بُدِيَ
وَذَنْبَ كُلِّ مُسْلِمٍ يَا رَبَّنَا
صَلَاتِكَ الْكَامِلَةَ الْمَقْدَارِ
كَمَا يَلِيْقُ بِارْتِفَاعِ ذِكْرِهِ
أَتْبَاعِهِ الْغُرِّ وَمَنْ لَهُمْ تَلَا
إِمَامَنَا أَبَا الْحَسَنِ الشَّاذِلِي
مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ بْنُ نَاصِرٍ
فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَكُلِّ مَنْزِلَةٍ
سَيِّدَنَا الْقُطْبَ أَبَا عَلِيَّانِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِحَمْدِهِ	وَشَيْخَنَا إِبْرَاهِيمَ شَيْخَ الشَّرْعِ
يَبْلُغُ ذُو الْقُصْدِ تَمَامَ قَصْدِهِ	يَا رَبِّ وَارْضَ عَنْ زَكِيِّ الدِّينِ
وَإِخْتِمَ لَنَا مِنْكَ بِصَالِحِ الْعَمَلِ	وَعَنْ شَقِيقِهِ أَبِي الْمَوَاهِبِ
وَعَنْ أَبِي التَّقَى وَكُلِّ صَاحِبٍ	بِجَاهِهِمْ يَا رَبِّ بَلِّغْنَا الْأَمَلِ
إِمَامَنَا الْمُجَاهِدَ الْأَمِينَ	
وَأَلَّهُ خُصُومَ كُلِّ بَدْعِي	

ولم يقتصر ارتباط الشيخ الطاهر الشبلي بالصوفية والفكر الصوفي على حرصه على التوسل (الدعاء الناصري)، فقد كان وثيق الصلة بجيرانه وأصحاره السادة الاسماعيلية بحبي السيد المكي بأم درمان. وتجلت تلك الصلة في العلاقة الوثيقة مع حفيد الشيخ إسماعيل الولي، السيد ميرغني السيد إسماعيل السيد محمد المكي الشيخ إسماعيل الولي، الذي وضعت أمه السيدة مريم بنت السيد مصطفى البكري بن الشيخ إسماعيل الولي في عام 1876م، وتوفي في عام 1950م، بعد عامين من وفاة الشيخ الطاهر الشبلي. وتولى السيد ميرغني رئاسة الطريقة الاسماعيلية في عام 1907م بعد وفاة والده السيد إسماعيل السيد محمد المكي. وكانت أكثر إقامته في حي السيد المكي بأم درمان الذي رحل إليه مع جده السيد محمد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي عند سقوط الأبيض على يد الإمام المهدي. ويذكر أن الإمام المهدي كان قد طلب من السيد محمد المكي اصطحابه تبركاً لفتح الخرطوم. فقام السيد محمد المكي مع الإمام المهدي ومعه جميع أفراد عائلته وأحفاده بما فيهم السيد ميرغني الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره عند سقوط الخرطوم في يد أنصار المهدي في عام 1885م، وسكنوا بحبي السيد المكي بأم درمان والذي سمي باسمه .

وقد درس السيد الميرغني القرآن الكريم وحفظه تجويداً على يد الفقيه أحمد بن جنازير ثم درس علم النحو والفقه والتوحيد على يد العالم الكبير الشيخ محمد البدوي، إسوة برفيقه الشيخ الطاهر الشبلي. وعند تولي السيد ميرغني رئاسة السجادة الاسماعيلية في عام 1907م توطدت علاقته بالشيخ الطاهر الشبلي الذي كان من أعيان مدينة

أم درمان. وكان الشيخ الطاهر كثير التردد على حلقات الذكر والعلم والمديح في حوش السيد ميرغني بحي السيد المكي الذي كان مقراً للطريقة الإسماعيلية في أم درمان. ونظراً لولعه بالتوسل وقناعته بالتبرك الصوفي فقد كان كثير الاطلاع على التوسل الإسماعيلي لمؤلفه الشيخ إسماعيل الولي، جد رفيقه السيد ميرغني الآتي نصه:

بذاتك الأسنى وكنه الكنه سألتك اللهم عاري الشبه
وبالصفات ثم والأسماء وفعلك القدوس و السناء
وبتجليك و قدس القدس ونورك الأبهى وقاب القوس
بالمستوى و الحجب السنية وسبحات ذاتك العلية
بطلسم الآيات ثم القلم واللوح والنون العظيم الحكم
بعرشك العالي و بالكرسي وبالسما والارض يا ولي
بيتك العزي وبالمعمور وبيتك الأزهى و نور النور
والمنتهى وغيب كل غيب وسرك المخفي عالي الهيب
بنافخ الصور ومع جبريل وقابض الأرواح عزرائيل
وهكذا ميكائيل والأملاك جميعها والسبعة السماك
بالمصطفى القدوس سر الكون مُظهر كل طلسم مصون
بذاته وباسمه الشريف و ما حواه من عطا منيف
يارب بالخليل والكلیم والروح و الأرواح بالتعميم
والأنبيا والمرسلين سائرا والخلفا الصديق ثم عمرا
وهكذا عثمان مع علي بكل صحب تابع وفى
بالحسنين ثم بالزهراء والأمهات ثم والأبناء

وبالبنات يا إله ياهو يا بر يا مولاه يا رباه
وبالأمم المهدي المنتظر والختم ختم سيد البشر
أدم لنا من حضرة المهدي فيضا ومن ختامك المرضى
وتاج ختم مع بنيهِ من رقا والأولياء أهل الجناح والتقوى
نور فؤادي وأعف لي ذنوبي وأجعل قلبي مهبط الغيوب
بقربك اللهم يا رباه أدن لعبدك الحماء الله
واستوله في كل أمر لا تذرو ولا تكله لسواك يا مبر
دعائك مضطراً إلى رحماك أجب دعاه ما له سواك
يا رب يا الله يا الله ولا إله إلا أنت الله
بحق طه ثم حم يس وبالدهان ثم حمعس
حقق مسيري وأجذب الفؤادا وبلغ المأمول والمراد
وزده شهرة وإن شهيرا وكن له يا خالقي نصيرا
وحفه بأعظم التجلي بحالة الصعود والتدلي
الله يا الله يا غوثاه يا خالق الكون ويا مولاه
وأحفظه فيما فيه من رضاك واجلسه قرب القرب من تلقاك
وأجر عليه مددا جزيلا يهطل فوق قلبه هطिला
وأنفع به لكل من أتاه واشرح صدور من به أواه
وأجعله مقتدى به إماما وأحسن له المآب والمقاما
وأتبع به بسنة النبي واسلك به المسلك السوي

بجاه شيخي ذروة العنان خاتمهم محمداً عثمان
وهكذا بأحمد الإدريسي المنتقى بأكمل التقديس
بحق خير العالمين أحمداً وآله ما غاب نجم أو بدا
واحفظه في الأسفار والإقامة وأجليه من تحلية الظلامه
وسع لنا العلوم والأسراراً وأولنا الفيوض والأنوار
وأجعل لنا كسبا حلالاً طيباً وسد عنا للسؤال المطلبا
وسيدي عثمان علي شأنه كذا لاين ادريس ذي المكانه
وقاصديهما يرد خائباً بالسوء كل لا يزال غالباً
واخذل لمن نوى علينا الاعتدا واطمس عليه لا يكون مهتدا
أو اعتراضاً رام بالطريق دمره يا مهيب البريق
وأهلها والسالكين فيها وكل من تحويه أو يحويها
وعظم الأجور للجميع ربي بجاه حصنك المنيع
هذا وأرجو الله بالتوسل توسلاً إلى جنابك العلي
قد انتهى ما قال ذو المساوي فأحسن الله له المثاوي
يدعى بإسماعيل ذي الجناوي اغفر وزح عنه يد البلاوي
واغفر لوالديه والإخوان والمسلمين بل لكل جاني
وصل ربي على النبي المصطفى سيد كل من يكون أشرفاً
وآله وصحبه الأبرار ما فاض موج البحر والأسرار

وفاة الشيخ الطاهر الشبلي

استمر الشيخ الطاهر الشبلي في عطائه الجَزَل في تربية وتعليم أبناء الوطن إلى أن وافاه الأجل المحتوم في 5 ديسمبر 1948م، وهو جالس على مكتبه، موجهاً للمعلمين ومشرفاً على الطلاب الذين وهب لهم بسخاء آخر نفسه الطاهر في سبيل إعلاء شأن الدين والوطن والعلم.

وكان الشيخ الطاهر على ثقة لا يراودها الشك بأن أحد تلاميذه الذين يتربون ويتعلمون على يديه في مدرسة الهداية سينتصب قريباً ليطوي العلم البريطاني للأبد، ويرفع مكانه علم السودان عالياً خفاقاً. وعند ذلك اليوم المرتجى سيهدأ بال الشيخ الطاهر بحلول ساعة الانتقام لأهله وذويه من شهداء وضحايا معركة كرري الخالدة. وكان الشيخ الطاهر يمني نفسه بأن يكون شهيداً لتلك اللحظة الفارقة في تاريخ الوطن التي يرفع فيها أحد تلاميذه النجباء راية الحرية التي سقط والده وذووه شهداء فداء لها في موقعة كرري. ولكن إرادة الله قدرت أن يخسر الشيخ الطاهر الشبلي في مكتبه شهيداً للعلم قبل أن يرفع تلميذه إسماعيل الأزهري علم السودان الحر بثماني سنوات.

الزعيم إسماعيل الأزهري يرفع لواء الاستقلال

شهد يوم الجمعة الأول من يناير 1956م رفع علم السودان الحر على يد الزعيم إسماعيل الأزهري، تلميذ الشيخ الطاهر الشبلي، فنال السودان استقلاله من الحكم الثنائي الإنجليزي المصري. وكان الزعيم الأزهري قد أعلن هذا الاستقلال من داخل البرلمان في 19 ديسمبر عام 1955م، نفس الشهر الذي توفي فيه الشيخ الطاهر الشبلي في عام 1949م. وكان هذا الاستقلال ثمرة نضال طويل لرجال سطروا التاريخ بأسماء من نور تظل أسماؤهم محفورة في وجدان الشعب السوداني. ولعل من أبرز الذين ناضلوا من أجل هذا الانتصار التاريخي الشيخ الطاهر الشبلي بمواقفه الشجاعة المشهودة ضد المستعمر ورفضه الأبوي للإغراءات المستمرة للتعاون معه، وريادته للتعليم الأهلي في السودان، ومشاركته الجوهرية في تربية وتكوين شخصية زعيم الاستقلال إسماعيل الأزهري عندما تتلمذ على يديه في مدرسة الهداية في عام 1913م.

ويجدر بالذكر أن الزعيم الأزهري بعد تتلمذه على يد الشيخ الطاهر الشبلي تلقى تعليمه الأوسط بدمدني، ثم التحق بكلية غردون عام 1917م ثم عمل مدرساً بمدرسة عطبرة الوسطى وبعدها في مدرسة أم درمان، قبل أن يبتعث للدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، والتي عاد منها في العام 1930م، حيث عين بكلية غردون التي أسستها جمعية الآداب والمناظرة. وعند قيام إضراب كلية غردون في العام 1932م، ساند الأزهري الإضراب مع عدد من الأساتذة السودانيين، ثم تجلّى نضوجه ونشاطه السياسي في الاجتماع التاريخي لمؤتمر الخريجين في 12 فبراير 1938م، والذي ترأسه فيما بعد. تولى الزعيم إسماعيل الأزهري رئاسة الحزب الوطني الاتحادي. وفي 6 يناير من العام 1954م انتخب رئيساً للوزراء من وداخل البرلمان، بعد فوزه في انتخابات 1953م. وكون أول حكومة وطنية من الحزب الوطني الاتحادي حيث أعلن

الاستقلال من داخل البرلمان في ديسمبر 1955م، ثم رفع رايته الخفاقة في الأول من يناير 1956م.

وقد ألقى الزعيم الأزهري رئيس مجلس الوزراء الخطاب التالي بمناسبة إعلان استقلال السودان :

«اللهم ياذا الجلال يامالك الملك ياواهب العزة و الاستقلال نحمدك ونشكرك ونستهديك ونطلب عفوك وغفرانك ونسأل رشدك أنت الموفق المعين.

ليس أسعد في تاريخ السودان وشعبه من اليوم الذي تتم فيه حريته ويستكمل فيه استقلاله وتتهياً له جميع مقومات الدولة ذات السيادة. ففي هذه اللحظة الساعة التاسعة تماماً من اليوم الأول من يناير 1956م، الموافق 18 جمادى الثاني سنة 1275هـ، نعلن مولد جمهورية السودان الأولى الديمقراطية المستقلة ويرتفع علمها المثلث الألوان ليخفق على رقعته وليكون رمزاً لسيادته وعزته.

إذاً انتهى بهذا اليوم واجبنا في كفاحنا التحريري فقد بدأ واجبنا في حماية الاستقلال وصيانة الحرية وبناء نهضتنا الشاملة التي تستهدف خير الأمة ورفعة شأنها ولا سبيل إلى ذلك إلا بنسيان الماضي وطرح المخاوف وعدم الثقة وأن نُقبل على هذا الواجب الجسيم أخوة متعاونين وبنيناً مرصوفاً يشد بعضه بعضاً، وأن نواجه المستقبل كأبناء أمة واحدة متماسكة قوية.

ولا يسعنا في هذه المناسبة إلا أن نمجّد هذا الشعب الأبّي على حيويته وإيمانه وجهاده الذي أثمر أطيب الثمرات. وأرى واجباً على في هذه اللحظة التاريخية أن أزجي الشكر إلى جمهورية مصر وحكومة المملكة المتحدة اللتين أوفتا بعهدهما وقامتا بالتزاماتهما التي قطعتها على نفسيهما في اتفاقية فبراير 1953م، وهما اليوم في هدوء وبنفس راضية تطويان علميهما اللذين ارتفعا فوق أرض هذا الوطن ستة وخمسين عاماً ليرتفع في مكانيهما عالياً خفاقاً علم السودان الحر المستقل.

ويهمني أن أسجل شكر السودانين للهند والباكستان اللتين شاركتا في جهود لجنة الحاكم العام. كما أسجل شكري للجنة السودنة وللدول السبع التي قبلت

بمساندتنا ورضيت الاشتراك في اللجنة الدولية التي كان مقرراً أن تشرف على إجراءات تقرير المصير. ولا أنسى أن أسجل شكري للدول التي سارعت بإرسال ممثلين لها في السودان وحتى قبل إتمام الاستقلال، ويشرفنا أن يكون ممثلوها من ضباط الاتصال السابقين بيننا الآن.

إن شعبنا قد صمم على نيل الاستقلال فناله وهو مصمم على صيانتة وسيصونه. ومادامت إرادة الشعب هي دستورنا فستمضي في طريق العزة والمجد، والله هادينا وراعينا ومؤيدنا وناصرنا وإن ينصركم الله فلا غالب لكم والسلام.

وهكذا تحقق حلم الشيخ الطاهر الشبلي برفع أحد تلاميذه في مدرسة الهداية علم السودان عالياً خفاقاً. وحلت ساعة الانتقام لأهله وذويه من شهداء وضحايا معركة كرري الخالدة. ورغم أنه كان يمني نفسه بأن يكون شهيداً لتلك اللحظة الحاسمة في تاريخ السودان ودور التعليم الأهلي في استقلاله من المستعمر، إلا أن أرادة الله قدرت أن انتقله للدار الآخرة قبل أن يرفع تلميذه إسماعيل الأزهري علم السودان الحر بثمانى سنوات.

ويذكر أن إسماعيل الأزهري قد كون أول أول حكومة وطنية من حزبه الوطني الاتحادي عام 1954م. وفي عام 1955م قاد وفد السودان لمؤتمر دول عدم الانحياز الأول في باندونج. وفي 19 ديسمبر 1955م قرار البرلمان أن يكون السودان دولة مستقلة كاملة السيادة ابتداء من الأول من يناير 1956م حين رفع الزعيم الأزهري علم الاستقلال المكون من الألوان الأخضر والأصفر والأزرق. وشهد عام 1956م سقوط حكومة الأزهري الوطنية وقيام حكومة السيدين برئاسة عبد الله خليل. وفي عام 1958م قام الفريق إبراهيم عبود بانقلاب ضد حكومة عبد الله خليل واعتقل الأزهري وأرسل إلى سجن نواقشوط لمطالبته المستمرة بعودة الحكم الديمقراطي للبلاد. وبعد انتصار ثورة أكتوبر 1964م، انتخب الأزهري للجمعية التأسيسية عن دائرة أم درمان الغربية، ثم انتخبه البرلمان كأول رئيس لمجلس السيادة في عام 1965م. ودخل الزعيم الأزهري السجن مرة أخرى بعد انقلاب مايو 1969م بقيادة العقيد جعفر

غميري. وفي أغسطس 1969م توفي شقيقه علي الأزهري وأصيب الزعيم الأزهري بنوبة قلبية نقل على أثرها للمستشفى حيث توفي إلى رحمة الله في الرابعة من عصر الثلاثاء 26 أغسطس 1969م.

وقد رثاه عمه ورفيقه في النضال ضد الاستعمار الشيخ مدثر البوشي بالقصيدة التالية:

مهلاً زميلي أخي ماذا دُهِيت به	هل أنت في الخلد حتى لست ألقاك
لقد شربنا كؤوس الحزن مترعة	فما نقول وقد لبيت مولاك
قد كنت يا أزهري بدمراً فكيف بنا	ونحن في الليلة الظلما فقدناك
وكنت رمز الكيان الحر مشتعلًا	وفي المشاعر تسري مليء دنياك
وكم تلفت في عهد الجهاد فما	أفيت خلاً وفي العهد إلّاكا
فكان ما كان من بعث ومنطلق	وفتية طوفوا جندا وأملاكا
حتى توارت جيوش الغاصبين ضحى	ما أروع النصر إذا تجنيه ييناكا
من لي بمثلك أدعوه لمعترك	يا أرجح الناس إيماناً وإدراكا
لولاك ما رفرت أعلام أمتنا	ولا تلاً لأ نجم السعد لولاكا
لئن دفنت بأرض كنت حارسها	فأنت في قلب شعب النيل مثواكا
جزاك ربك بالفردوس منزلة	ليا وفقاً لما قد كان أولاك

الزعيم إسماعيل الأزهري يرفع علم السودان 1956م



مقابر البكري - السكن البرزخي للشيخ الطاهر الشبلي والأزهري ورموز أم درمان

يقول الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ¹ ۚ ﴾
﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ² ۚ ﴾

تمثل المرحلة البرزخية مرحلة من المراحل التي يمر بها الوجود الإنساني بعد الموت، ولا توجد وسيلة لمعرفة أسرارها إلا من خلال ما أنزله الله تعالى في كتابه العزيز كما ورد في سورتي المؤمنون والزمر. وتمتد المرحلة الزمنية التي يقضيها الميت في البرزخ من لحظة الوفاة حتى يوم البعث حيث تنتهي عند النفخ في الصور للمرة الثانية. والأحداث الشريفة على غرار هذه الآيات المباركة من الذكر الحكيم تؤكد على أن « البرزخ » هو الوقت الفاصل بين حياة الإنسان في عالم الدنيا وبين نشأته في عالم الآخرة، أي من وقت موته إلى حين بعثه في يوم القيامة.

وكما هو معلوم، فإن هابيل بن آدم كان أول إنسان يموت على الأرض ويدخل الحياة البرزخية، حيث قتله أخاه قابيل. ونظراً لأن دفن الموتى لم يكن معروفاً للبشر في ذلك الوقت، فقد حمل قابيل جثة شقيقه وأخذ يحدق في يديه المملطختين بالدم، وراح يمشي بها إلى أن بعث الله غراباً حياً بجانب جثة غراب ميت. فرأى الغراب الحي وقد وضع الغراب أخاه الميت على الأرض وساوى أجنته إلى جواره وبدأ يحفر الأرض بمنقاره ووضع برفق في أول قبر في الكون وأخذ يهيل عليه التراب حتى دفنه تحت الثرى. فحزن قابيل على عجزه حتى عن معرفه ما يفعل بجثمان أخيه، حيث كان هذا الغراب

¹سورة المؤمنون: 99 و 100.

²سورة الزمر: 68.

أفضل منه. فقام قابيل وحفر قبراً لأخيه ودفنه كما فعل الغراب. وهكذا تعلمت البشرية كيفية دفن الموتى واحترام قدسية الميت من هذا الغراب الذي أصبح أول معلم للبشرية في دفن الموتى. قال تعالى:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ¹﴾.

ومنذ ذلك التاريخ، عرفت البشرية دفن الموتى وتواترت أساليب وطقوس الدفن إلى أن جاء الإسلام الذي حرص على كرامة الإنسان الميت مثل حرصه على كرامة الإنسان الحي. وأصدر نبينا المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم الأحكام والتشريعات التي تنظم الدفن في القبور، ووضع له واجبات، وسنناً، وجعله من حق الأموات على الأحياء. وقد مارس الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم الإشراف على تطبيق هذه الأحكام بنفسه في مقبرة البقيع التي تمثل المقبرة الرئيسة لأهل المدينة المنورة، وتبلغ مساحتها الحالية مائة وثمانين ألف متر مربع.

ويضم البقيع رفات الآلاف المؤلفة من أهل المدينة، وفي مقدمتهم الصحابة الكرام. ويروى أن عشرة آلاف صحابي جليل دفنوا في البقيع. وعلى رأس هؤلاء ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين، وأمّهات المؤمنين زوجات النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم، عدا خديجة وميمونة. كما دفن في البقيع أيضاً ابنته فاطمة الزهراء، وابنه إبراهيم، وعمه العباس، وعمته صفية، وزوجته عائشة بنت أبي بكر الصديق. وما يجدر ذكره أن البقيع كان حتى عهد قريب يعج بالأضرحة والقباب بموافقة، وأحياناً بأمر، كبار علماء المسلمين من الصحابة والتابعين. وقد تلقى جميع المسلمين بكل حفاوة وترحاب هذه الظاهرة الشرعية لا في المدينتين المقدستين وأطرافها فحسب، بل في سائر بلاد الإسلام كالهند بما فيها باكستان وبنغلادش، وكذا العراق وإيران ومصر وسوريا وإندونيسيا وغيرها.

¹سورة المائدة: 31.

وكما كان البقيع هو المرقد البرزخي للصحابة عليهم رضوان الله، أصبحت مقابر البكري هي المرقد البرزخي لأهل حي السيد المكي، بل ولعظماء السودانيين الذين اختارهم الله إلى جواره. فعندما توفي السيد مصطفى البكري بن الشيخ إسماعيل الولي في عام 1889م (وهو الشقيق الأصغر للسيد المكي)، سمع الخليفة عبدالله صوت البكاء والصياح الذي كان ممنوعاً في فترة المهديّة. ولكن بعد أن علم بأن المتوفى هو السيد مصطفى البكري بن الشيخ إسماعيل الولي لم يعترض وقال (جاز على مثله البكاء)، ثم حضر ومعه ألفان من رجالات الأنصار لتعزية السيد المكي، وأمر بدفن السيد البكري بمقبرة أم درمان والتي سميت باسمه (مقابر السيد البكري). وتقع مقابر البكري في أقصى الجزء الشمالي الغربي من مدينة أم درمان القديمة حيث تحيط بها أحياء المسالمة والعمدة وحي العرب. وتمثل مقابر البكري المقبرة الأولى في مدينة أم درمان العريقة، تليها مقابر حمد النيل، ثم مقابر أحمد شرفي.

ومنذ ذلك الحين، ظلت مقابر البكري تمثل موقداً برزخياً لسكان حي السيد المكي. وكما كان حي السيد المكي يمثل قلب أم درمان والسودان النابض في الحياة السياسية والعلمية والرياضية والفنية في الحياة الدنيا، ظلت مقابر البكري تستقبل نفراً كريماً من أنبل أبناء الوطن الذين رحلوا عن هذه الدنيا، وتمثل لهم سكناً برزخياً إلى يوم يبعثون. ففي الجانب الأسري للسلالة الإسماعيلية، دفن في هذه المقابر عدد كبير من أحفاد وأسباط الشيخ إسماعيل الولي وأقربائهم وأصهارهم. كما شُيِّع فيها الراحلون من سكان حي السيد المكي وأحياء أم درمان القديمة الأخرى، وأذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، حي العرب، وحي العمدة، والمسالمة، وبيت المال، وأبوروف، والركابية، والملازمين، والعرضة، والموردة. كما دُفِن فيها العديد من ساكني مدن وأرياف السودان الأخرى..

فعلى صعيد السياسيين الذين ساهموا في صناعة التاريخ الناصع للوطن يرقد في هذه المقابر، على سبيل المثال لا الحصر، شهداء اللواء الأبيض، والزعيم إسماعيل الأزهرى، والأمير لاي عبد الله خليل، والرئيس محمد أحمد محجوب، والرئيس سر

الختم الخليفة، والدرديري محمد عثمان، وأحمد محمد صالح، وعبد الفتاح المغربي، وإبراهيم المفتي، ومبارك زروق، وحسن عوض الله، وخضر حمد، ويحيى الفضلي، ومحمد صالح الشنقيطي، وأحمد عبد الوهاب، وأحمد رضا فريد، وإبراهيم ألياس، وأمين الشبلي، وفتحي أحمد علي الأردب، وخالد حسن عباس.

أما بالنسبة لأهل العلم والتعليم والقضاء فقد أوت مقابر البكري الشيخ الطاهر الشبلي، والشيخ أبوبكر المليك، ومصطفى الكتيابي، وأحمد بشير العبادي، والبروفيسور كامل الباقر، ويوسف الأحمد، وعبد الله عبد الماجد، والطيب شبيكة، وحسن صديق عيسى، ومحمد حسين، وصديق فريد، وعثمان الطيب، ومحمد ميرغني مبروك، ويحيى أبو القاسم.

ومن رجال الأعمال والتجارة يذكر على سبيل المثال، عبد المنعم محمد، وعبد السلام أبو العلا، ومحمد أحمد البرير، وسعد أبو العلا، ومأمون البرير، ويحيى الكوارتي، وعبد الحميد المهدي، ومدني أبشر، وصالح العبيد، وأحمد العبيد.

وبالنسبة للأدباء والفنانين، فقد توسد ثرى مقابر البكري الروائي العالمي الطيب صالح، والتيجاني يوسف بشير، والتيجاني عامر، وأحمد يوسف هاشم، ومحمد بشير فوراي، والفنان التاج مصطفى، والفنان إبراهيم عوض، والشاعر عبد الرحمن الريح، والشاعر سيد عبد العزيز، والشاعر عبيد عبد الرحمن، والكباشي محمد نور، ومحمد عثمان ياسين.

وما يجدر ذكره أن الأمير أحمد شرفي (ابن عم الإمام محمد أحمد المهدي)، الذي تحمل اسمه مقابر أحمد شرفي الشهيرة في أم درمان، لم يدفن في مقابر أحمد شرفي، بل دفن في مقابر البكري عندما توفي في عام 1911م، أي بعد 22 عاماً من وفاة السيد مصطفى البكري. وقد ورد أن سبب تسمية مقابر أحمد شرفي بهذا الاسم أن قطعة الأرض التي شكلت نواة لهذه المقابر كانت ملكاً للأمير أحمد شرفي، حيث أوصى بتحويلها لمقابر للمسلمين بعد مماته، وبالتالي فإن سبب تسمية المقابر بهذا الاسم، وفق

المادة المنشورة على الشبكة العنكبوتية، هو ملكية الأرض، وليس دفنه فيها، بما يقف شاهداً على إحسان هذا الرجل وفضله.

ويجدر بالذكر أن السادة الإسماعيلية الذين أسسوا مقابر البكري يرددون بعض المقاطع من البراق عبر الأجيال في هذه المقابر التاريخية عند تشييع موتاهم. ومن هذه المقاطع ما ألفه الشيخ إسماعيل الولي رضي الله عنه في كتابه حقائق المشتاق:

أقول أنا إسماعيل بالحمد أبداً مقال في مدح الرسول وأنشأ
له كل وصف بالثناء أنبأ كما هو أزكى العالمين وأثنأ
رسول من الرحمن قد جاء نبئ

أتيتك أنسني بقبري وجد بما ترى يجير المستجير الذي احتما
وضاعف لي البشري وقل لي تحوز ما تشاء ويوم الحر تروى من الظمأ
بكأس دهاق شربة بعد شربتي

وفي يوم بعثني يا شفيعي تولني وأدخلني تحت اللواء ونجني
وعلى مقاماتي جميعاً وحفني برؤية رب الكائنات وبربي
بما لم يجده الغير يا من هو الغوث

فهذا أنا إسماعيل قولي ختمته ببث معاذيري فقل لي قبلته
وعيبي يا مولاي قل لي سترته وذنبك يا عبدي فأني غفرته
لأنني مهما أقض يقضي به المولى

فإني يا مولاي صاحب علة أتيتك بالآثام من كل قبلة
لأنني ذو عجب كثير وسمعة وكل رياء غصت فيه بهمة
فلمست بمعصوم ولم أحسن الفعلا

محمد المكّي ابني وأحمد أخوه فكل منهما كان ينشد
لذاتك مدحاً بالمحبة يشهد ونال مقاماً بالمقامات يحمد
تولاهما عند الممات وفي المحيا

أنل عبدك البكري خيراً مضاعفاً ومطلق أولادي كن ملاطفاً

وكافة أزواجي أعطهن وظائفاً لأنك تؤوى كل من كان خائفاً
صلاتي وتسليمي على ذاتك العليا
كما ينشد السادة الاسماعيلية عند دفن موتاهم ما ألفه السيد المكي بن الشيخ
إسماعيل الولي رضي الله عنه في كتابه البرق الساطع:
تؤانسني في القبر يا صاحب الطور وتجعل لي فيه قناديل من نور
فإني أتيت بالمعاصي وبالزور فأنت اعتمادي يوم ينفخ في الصور
فقل لي أيا المكي تنجو من الشمس
وتدخل في تحت اللواء معظماً وتشرب من حوضي وتنجو من الظما
وفي الجنة العليا تصير مكرماً تشاهد رب العالمين لتعظما
فهذا هو المقصود يا صاحب الإنس

تجفيف مدرسة الهداية

مثّل العام الدراسي 1969/70م منعطفاً مهماً في تاريخ مدرسة الهداية، حيث قامت السلطات في وزارة التربية والتعليم بتطبيق السلم التعليمي (3-6-3)، عوضاً عن السلم السائد (4-4-4) دون استعداد ودراسة لآثاره البعيدة على المدارس الأولية. ذلك أن هذا السلم غير المدروس قد فرض على المدارس الأولية زيادة عدد فصولها بنسبة 50% لتصبح 6 فصول بدلاً عن 4، دون أن تقدم الوزارة أية مساعدات لتنفيذ هذا القرار.

وعانت العديد من المدارس، ومن بينها مدرسة الهداية، من هذا القرار المفاجئ حيث اضطرت لتجهيز هذه الفصول الإضافية على عجل مستخدمة مواد غير مستديمة مثل «الحصير والقنا» خصماً على المساحة الضيقة التي كان يستخدمها التلاميذ في أنشطتهم الرياضية والتربوية الأخرى. وقد أثر ذلك سلباً على البيئة الدراسية، بدرجة جعلت المدرسة غير صالحة للقيام بالمهام التربوية والتعليمية على الوجه المطلوب. وفاقم من هذه المشكلة المتعلقة بالمباني مشكلة فنية تتعلق بتوفير المعلمين المدرسين لمقابلة احتياجات توسع المدرسة إلى ستة فصول.

واستمرت المدرسة على هذا الحال حتى عام 1974م، حين فرض عليها التوقف تماماً عن أداء رسالتها السامية، التي ظلت تؤديها بكفاءة واقتدار منذ عام 1912م. وتلافياً للآثار السلبية لتجفيف صرح تاريخي مثل مدرسة الهداية، فقد سعى نفر كريم من عارفي القيمة الوطنية لهذه المدرسة إلى إعادة بنائها في أرض بديلة تخصصها السلطات لهذا الغرض القومي، إلا أن كافة المحاولات في ذلك الوقت باءت بالفشل التام. وبالتالي فقد الوطن معلماً بارزاً من معالمه التربوية والتعليمية الوضّاءة الذي تتلمذ فيه كوكبة من أفاضل هذا الوطن الذين تصدروا وأثروا الحياة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والأدبية، والرياضية.

إحياء وتعثر مدرسة الهداية

تحرص الدول المتحضرة على نطاق العالم على الكيانات التعليمية التاريخية التي ساهمت بدور بارز في رسم المعالم البارزة لتلك الدول، ولعبت دوراً إستثنائياً في تكوين الشخصية الاعتبارية لشعوبها، وتربية رواد حركتها الوطنية، ووضع اللبنة الأساسية لنهضتها وشموخها. وتحرص هذه الدول على أن تظل هذه الكيانات التعليمية حية متوهجة يشع ضياؤها لينير طريق المستقبل الزاهر للأجيال المتعاقبة.

وتشير الشواهد إلى أن الدور التاريخي الذي لعبته مدرسة الهداية بأم درمان في رسم معالم السودان الحديث وتكوين الشخصية السودانية، يستدعي بذل وتنسيق أقصى الجهود من الحكومة والقطاع الخاص ومنظمات المجتمع المدني لإحياء المدرسة وتقديم الدعم لها لمواصلة رسالتها التربوية والتعليمية التي انطلقت منذ عام 1912م. وليس أدل على ذلك من دور مدرسة الهداية المشهود في تربية وتعليم رواد الحركة الوطنية وعلى رأسهم قائد الاستقلال، الزعيم الخالد إسماعيل الأزهري. وكنواة لهذا الجهد الوطني فقد قامت أسرة الشيخ الطاهر الشبلي، وسكان حي السيد المكي بأم درمان، وخريجوا مدرسة الهداية من الأجيال المتعاقبة، بإقامة هذا الاحتفال للاحتفاء بالذكرى المئوية لتأسيس المدرسة، والتفاكر حول إحياء المدرسة لمواصلة مسيرتها التاريخية.

استشعاراً للدور التاريخي الذي لعبته مدرسة الهداية في رسم معالم السودان الحديث وتكوين الشخصية السودانية، فقد تم تكوين مجلس أمناء للمدرسة لإحيائها لمواصلة رسالتها الوطنية التاريخية. ويتألف المجلس مولانا دفع الله الحاج يوسف، ويضم في عضويته كلاً من: السيد صالح عبد الرحمن يعقوب، والدكتور كامل شوقي، والبروفسير عبد الرحيم السيد كرار، والسيد ميرغني سليمان، والسيد أمير عبد الله خليل، والأستاذ عبد الله خيرى، والأستاذ حسين الخليفة الحسن، والأستاذ مبارك يحيى عباس، والدكتور بركات الحواتي، والدكتور علم الدين الطاهر الشبلي، والبروفسير مكي مدني الطاهر الشبلي، والمهندس محمد الباقر الطاهر الشبلي، والدكتور مكي إسماعيل البكري.

وقد قام مجلس الأمناء باتخاذ الإجراءات الكفيلة بإحياء مدرسة الهداية كمدرسة ثانوية للبنين، بحيث تمثل أنموذجاً يحتذى كمؤسسة تعليمية غير ربحية تجعل التعليم العصري المتميز في متناول عامة أبناء الوطن. ويقع الموقع الحالي للمدرسة في بقعة تاريخية بجوار بوابة عبد القيوم بأم درمان. وبذل مجلس الأمناء جهداً كبيراً لتهيئة الظروف المادية والمعنوية لانطلاق المدرسة مواصلة لدورها المشهود في ريادة التعليم الأهلي. فقام بالحصول على التصديق النهائي من وزارة التربية والتعليم بولاية الخرطوم وأشرف على صيانة موقع المدرسة بالقرب من بوابة عبد القيوم. كما قام بحملة لجمع المساهمات من الخيرين وخريجي المدرسة. ووجه بشراء الأثاث والأدوات التعليمية والتربوية اللائقة بتاريخ المدرسة، ووضع خطة لتأسيس موقع للمدرسة على الإنترنت وإطلاق حملة دعائية وإعلانية لتعريف أولياء الأمور والتلاميذ. كما قام بشراء الكتب والمطبوعات الدراسية والتعاقد مع المعلمين المتفرغين وغير المتفرغين، وتجهيز الزي المدرسي توطئة لبداية الدراسة في العام الدراسي 2014/2013.

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذي بذله مجلس الأمناء لإحياء مدرسة الهداية على أسس راسخة باستجلاب أفضل المعلمين والمعينات الدراسية العصرية، إلا أن إدارة المدرسة لم تتمكن من استقطاب الكم والنوع اللازم من التلاميذ لضمان استمرار المدرسة بالشكل المطلوب. وقد أدت الآثار السلبية المتراكمة لذلك القصور إلى صعوبة استمرار المدرسة برغم الدعم المادي والمعنوي الجاد من مجلس الأمناء لإدارة المدرسة. وشهد العام الدراسي 2016/2015 توقف الدراسة في المدرسة، وبالتالي شهد التعليم الأهلي في السودان انتكاسة كبرى بغياب المؤسسة التعليمية الرائدة التي قام على أكتافها هذا النسق التعليمي والتربوي الوطني الذي رقد السودان بنفر من خيرة أبنائه في مختلف المجالات السياسية والأكاديمية والثقافية والاجتماعية والعسكرية.

بعض خريجي مدرسة الهداية



الزعيم إسماعيل الأزهري



اللواء محمد طلعت فريد



الأستاذ عبد الخالق محجوب



الأستاذ أمين الطاهر الشبلي



الأستاذ دفع الله الحاج يوسف



البروفيسور كامل الباقر



الدكتور بشير البكري



الفريق فتحي أحمد علي



اللواء موسى نوري



الشاعر إبراهيم العبادي



البروفيسور صديق أحمد إسماعيل



الدكتور كامل شوقي



الفنان صلاح محمد عيسى



الفنان محمد ميرغني



الفنان كمال ترباس



الإعلامي حمدي بولاد



الصحفي عبد الرحمن مختار



المسرحي الفاضل سعيد

الإعلامي عبد الرحمن أحمد



الكاتب بشري وهبة



الكاتب سليمان عبد القادر



الكاتب بشارة النضيف

مقاربة تاريخية للتعليم في السودان

تفيد إعادة زيارة تاريخ التعليم في السودان بمنظور تحليلي موضوعي لتواتر الأحداث والشخصيات الذين ارتبطوا بها، أن تأسيس مدرسة الهداية بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي تمثل نقطة فارقة في تاريخ التعليم في السودان. ذلك أن الجهد الاستثنائي الذي بذله في الإعداد الذاتي تعليمياً ونفسياً لتحقيق النجاح المنشود في تأسيس المدرسة، قد انعكس مباشرة في الدور التاريخي الذي لعبته المدرسة العريقة في تغيير ملامح تاريخ السودان. ذلك أن دور مدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية في السودان لم يقتصر فقط على الجوانب التعليمية والتربوية، بل تعدى ذلك ليشمل كافة المجالات الوطنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية والعسكرية. وقد وضح ذلك جلياً في الدور الريادي والطليعي الذي لعبه خريجو مدرسة الهداية المتميزون في مجمل المجالات المذكورة. فعلى الصعيد الوطني والسياسي أليس أدل على دور المدرسة في المساهمة الجوهرية في رسم معالم السودان الحديث من أنها كانت المرتكز العلمي والتربوي الذي انطلق منه إسماعيل الأزهري محرر السودان من الاستعمار والتبعية. وقد شملت قائمة خريجي مدرسة الهداية في المجال الوطني والسياسي إلى جانب الزعيم إسماعيل الأزهري كلاً من عبد الخالق محجوب، وأمين الشبلي.

أما على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، فقد ساهمت مدرسة الهداية في تعليم عدد كبير من قادة الخدمة المدنية الذين تسلموا مسؤولية إدارة الدولة الحرة بعد أن قام أشهر خريجي المدرسة بطرد المستعمر الغاشم من البلاد. وتشمل قائمة خريجي المدرسة من أبلوا بلاء متميزاً في المجالات الاقتصادية والاجتماعية كلاً من البروفيسور كامل الباقر (حفيد الشيخ إسماعيل الولي)، والدكتور بشير البكري، والدكتور كامل شوقي، ومولانا دفع الله الحاج يوسف.

وعلى الصعيد العسكري، فقد تخرج من مدرسة الهداية نفر من أميز الضباط السودانيين الذين اضطلعوا بمسؤولية سودنة الجيش السوداني بكفاءة واقتدار. وقد

شملت قائمة العسكريين الأفذاذ الذين درسوا في مدرسة الهداية كلاً من : اللواء محمد طلعت فريد، واللواء أحمد رضا فريد، عضوي المجلس الأعلى للقوات المسلحة إبان حكم الفريق إبراهيم عبود، والكومندان (اللواء) موسى نوري، أول نائب مدير للسجون عند السودنة، والفريق فتحي أحمد علي، القائد العام السابق للقوات المسلحة، والفريق محمد موله السيد كرار، أحد أبرز قادة القوات المسلحة السودانية.

وفي مجال الرياضة، درس في المدرسة كل من اللاعبين المتميزين مكي السيد محمد، وبكري موسى نوري التقر (حفيدى الشيخ إسماعيل الولي)، وبشرى وهبة، وبشارة عبد النظيف، وسليمان عبد القادر. كما درس في مدرسة الهداية أيضاً الأستاذ عبد الرحمن مختار، مؤسس صحيفة الصحافة، وشقيقه حسن مختار الأب الروحي للصحافة الرياضية في السودان. ودرس فيها أيضاً الفنان صلاح محمد عيسى والفنانان محمد ميرغني، وكمال تريباس، والفنان المسرحي الفاضل سعيد ، والإذاعيان حمدي بولاد وعبد الرحمن أحمد محمد صالح. ومن الأساتذة والشعراء الفحول تعلم على يد الشيخ الطاهر الشبلي في مدرسة الهداية كل من إبراهيم العبادي، وعبيد عبد الرحمن، والهادي أحمد محمد صالح، وإبراهيم الرشيد. ويجدر بالذكر أن الأستاذ خالد أبو الروس رائد المسرح السوداني الذي تعلم على يد الشيخ الطاهر الشبلي، قد عمل أستاذاً ثم ناظراً لمدرسة الهداية لفترة تزيد على ربع قرن من الزمان.

وتقديراً لهذا الدور الاستثنائي والأصيل الذي قامت به مدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية في السودان في بناء قواعد الدولة السودانية العصرية بعد طرد المستعمر الغاشم، فقد استحققت بجدارة أن تمثل نقطة فارقة في تدوين تاريخ التعليم في السودان. وعليه فإن المقاربة التاريخية للتعليم في السودان تتمحور حول تاريخ تأسيس هذه المدرسة، حيث يشمل الجزء الأول من المقاربة حالة التعليم في السودان قبل تأسيسها. ويشمل الجزء الثاني من المقاربة التاريخية سرداً للمؤسسات التعليمية التي رأت النور بعدها.

التعليم في السودان قبل تأسيس مدرسة الهداية (1912م)

التعليم في دولة الفونج :

أجمع المؤرخون على أن التعليم في السودان قد شهد بداياته مع نشأة دولة الفونج في سنار (1504م - 1821م)، نتيجة للتحالف بين قبائل الفونج في جنوب شرق النيل الأزرق بقيادة عمارة دنقس، وقبائل العبدلاب بقيادة عبد الله جماع. وكانت هذه الدولة تعرف أيضاً بمملكة الفونج والسلطنة الزرقاء والدولة السنارية. وتعتبر مملكة سنار أول دولة عربية إسلامية قامت في بلاد السودان بعد انتشار الإسلام واللغة العربية فيها نتيجة لتزايد الوجود العربي والتصاهر بين العرب والنوبة في الشمال¹.

وقد مثلت هذه المملكة أول مرحلة للانتقال العضوي للسودان للكيان العربي الإسلامي بعد أن سادته الممالك المسيحية في دولتي المقررة وعلوة. وكان تحقيق هذا التطور الفارق في تاريخ السودان ثمرة للجهود التي بذلت من ملوك الفونج، ومشايخ العبدلاب، ومشايخ الطرق الصوفية. حيث فتحت دولة الفونج الباب للجميع من العلماء والفقهاء المتصوفة وساعد ذلك على انتشار مجموعة من الطرق الصوفية في السودان، إذ أصبحت الثقافة الصوفية هي الغالبة علي الحركة التعليمية والفكرية في السودان في عهد الفونج. وشهدت هذه الفترة بداية حركة علمية نشطة لتدريس العلوم الإسلامية الشرعية المختلفة مثل علوم القرآن والحديث والفقه والتوحيد وعلوم اللغة العربية. وبذلك تصدى العلماء والصوفيون لكافة التحديات التي كانت تواجه تحويل السودان من بلد كان يخضع للمسيحية إلى بلد تسوده الثقافة الإسلامية العربية. وتم تأسيس الخلاوي والمساجد والزوايا في كل أنحاء السودان حيث يرجع لها الفضل الأكبر في نشر الإسلام وبث مبادئه الصحيحة في البلاد.

¹ ويكيبيديا الموسوعة الحرة - سلطنة سنار.

ويذكر أن أول المساجد التي شيدت في السودان كانت في عهد عبدالله بن أبي السرح في منتصف القرن السابع الميلادي خارج مدينة دنقلا عاصمة دولة المقرّة المسيحية حيث اتجهت المساجد منذ الوهلة الأولى إلى تحفيظ القرآن وبعضها إلى تدريس القرآن وعلومه. ومن بين هذه المساجد العديدة اشتهر مسجد إدريس ود الأرباب 1507م - 1650م كدور للعبادة والتعليم في آنٍ معاً، يتوافد عليه الطلاب من أنحاء مختلفة من السودان¹.

وقد أبدى العلماء المتصوفة إبان عهد الفونج درجة عالية من الاحتمال وصلابة العزيمة حتى تمكنوا من نشر نور العلم والهداية بالتدرّج في كافة أنحاء السودان مستغلين التزام مملكة الفونج بحسم الصراع الفكري آنذاك لمصلحة الإسلام والعروبة².

وقد أدى ذلك التوجه الفكري والثقافي نحو الإسلام إلى بروز العديد من الطرق الصوفية التي كان لها أبلغ الأثر في نشر الإسلام في السودان. وكان من أبرز العلماء الصوفيين أصحاب الأثر البارز في نشر الإسلام في السودان الشريف أحمد بن إدريس المغربي الحسني (1750م - 1837م). ويجدر بالذكر أن الشريف أحمد بن إدريس كان مقيماً بمكة المكرمة ومنها توجه إلى صعيد مصر في عام 1813م بصحبة تلميذه السيد محمد عثمان الميرغني (الختم)، واستقر به المقام في قرية الزينية والتي تقع بين مدينتي (قنا وأسنا) حيث مكث هناك خمس سنوات أخذ خلالها عن الشيخ حسن بن حسن القنائي. وفي العام 1815م أمر تلميذه السيد محمد عثمان الختم بالتوجه إلى السودان ورجع هو لمكة حيث كان اتباعه يتعرضون للمضايقات من قوات ابن سعود وأعوان الشيخ محمد عبد الوهاب. ولكن الشريف أحمد بن إدريس استطاع أن ينشر تعاليمه بحذر حيث كان يوجه إتياعه للانصراف للذكر والعبادة وعدم المجادلة والمناظرة مع السلفيين، وملازمة الصلوات الخمس في المسجد الحرام. واستطاع بحنكته أن يوجد قاعدة عريضة لدعوته التي كانت تتعارض مع آراء الوهابيين. وفي عام 1828م غادر مكة المكرمة إلى اليمن حيث

¹ محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (1820م - 1956م)، مركز محمد عمر بشير، جامعة أم درمان الأهلية، 2005.

² تقويم الدور الحضاري لدولة الفونج الإسلامية 1504م - 1821م، شبكة المشكاة الإسلامية، أبريل 2007م.

توفي فيها في عام 1837م. وفي عام 1897م حضر حفيده محمد عبد العالي إلى دنقلا واستقر بها حيث أسس المساجد في كل من دنقلا وأم درمان والخرطوم¹.

وكما سبق ذكره فقد انتدب الشريف أحمد بن إدريس تلميذه السيد محمد عثمان الميرغني للسودان للتبشير بالإسلام والدعوة إلى الطريقة الإدريسية الشاذلية، نظراً لأنه كان من ألمع تلاميذه وأكثرهم قبولاً لدى العامة. ودخل السيد محمد عثمان بلاد النوبة جنوباً حيث صادف نجاحاً كبيراً، ومنها سار إلى منطقة المحس فدنقلا. ثم اتجه غرباً إلى شمال كردفان وأقام فترة في تلك المناطق يبشر بالإسلام بين القبائل الوثنية ويدعو أهالي كردفان إلى طريقة شيخه أحمد بن إدريس. وقد وجد استجابة محددة لدعوته في منطقة بارا وتزوج منها كريمة محمود جلاب، وأنجبت له الحسن الميرغني في عام 1819م، الذي نشر الطريقة فيما بعد في السودان على أوسع نطاق. ومن شمال كردفان توجه السيد محمد عثمان الختم إلى سنار عاصمة دولة الفونج، في عام 1232م حضر إلى سنار الشريف محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الميرغنية في السودان. ومن سنار سار السيد محمد عثمان الميرغني إلى البحر الأحمر، ومن هناك عاد إلى الحجاز للملازمة شيخه أحمد بن إدريس ولازمه حتى وفاته عام 1837م.

وبعد وفاة الشيخ أحمد بن إدريس أوفد السيد محمد عثمان الميرغني أبناءه لمختلف الدول للتبشير والدعوة للطريقة الختمية. فأرسل أكبر أبنائه (محمد سر الختم) إلى اليمن وحضرموت، ثم أوفد ابنه الحسن - الذي تعلم في مكة، إلى شرق السودان حيث اكتسب ثقة البجا والبنني عامر والخلنقة وغيرهم من القبائل التي سبق أن زارها والده. وفي هذه المناطق لقي الحسن قبولاً وكون أتباعاً الأمر الذي دفعه في همة ونشاط إلى مواصلة سيره إلى سنار ثم إلى كردفان موطن خؤولته. ثم طاف شمال السودان من ملتقى النيلين مروراً بمناطق الجعليين والرباطاب والشايقية والداقله والمحس وبلاد النوبة حيث صادفت دعوته نجاحاً كبيراً في الشمال والشرق².

¹http://alsadah.hooxs.com/t38-topic1

²الدرر السننية، نشأة الطائفة الختمية 2700 http://www.dorar.net/enc/firq/

وفي خلال تجواله في كردفان التقى السيد محمد عثمان الميرغني بأذكي وأنجب تلاميذه الشيخ إسماعيل الولي (1792م - 1863م). ويذكر أن والده الشيخ إسماعيل الولي هي السيدة ملكة الدار بنت ساتي سلمان بن إبراهيم بن عبد النبي بن الحاج حمد بن الفقيه بشارة. وهي من قرية منصوركتي بشمال السودان، حيث لا يزال ومازال مكان مشرع والدها ساتي سلمان موجوداً في القرية. كما لا تزال دروس ومقابر أسلاف الشيخ إسماعيل الولي موجوده في قرية منصوركتي. وتقول الروايات أن السيدة ملكة الدار كانت حبلى بالشيخ إسماعيل الولي عندما رحلت مع زوجها من منصوركتي إلى الأبيض فوضعتة فيها. وولد الشيخ إسماعيل الولي بفريق الدناقلة في الأبيض الذي تغير اسمه إلى فريق القبة بعد أن بنى نجل الشيخ إسماعيل، السيد محمد المكي قبة فوق ضريح والده.

وقد أبدى الشيخ إسماعيل الولي نبوغاً مبكراً حيث حفظ القرآن الكريم وهو لم يبلغ الثامنة من عمره. ويرجح أنه قد تلقى علومه الشرعية من والده (بما له من تراث شرعي متصل من جده بشارة تلميذ السيد إبراهيم البولاد ومن أهله فقهاء البلياب). وبدأ الشيخ إسماعيل الولي في تعليم أبناء المسلمين القرآن والفقه وهو دون العشرين من عمره بمدينة الأبيض. وعمل على نشر الإسلام في جبال النوبة بمحافظة الدلنج الحالية. وهو أول من أسس خلوة للقرآن الكريم ومسجد بجبال النوبة.

وتلقى الشيخ إجازته الصوفية على يد السيد محمد عثمان الميرغني المشتهر بالختم عند زيارته لشمال كردفان في عام 1816م، ثم صار خليفته على شمال كردفان. ومكث الشيخ إسماعيل الولي في الطريقة الختمية سبعة أشهر فقط، وبعدها أسس الطريقة الإسماعيلية في العشر الأواخر من رمضان المبارك عام 1821م، أي نفس العام الذي انتهت فيه دولة الفونج وشهد بداية العهد التركي 1821م - 1881م.

ويذكر أن للشيخ إسماعيل الولي 76 مؤلفاً كان لها أبلغ الأثر في نشر تعاليم الدين الإسلامي في السودان بواسطة تلاميذه الذين انتشروا في كافة بقاع البلاد¹. ونسبة لقلّة انتشار المكتبات العامة في السودان إبان فترة دولة الفونج فقد تصدّى عدد قليل من العلماء الصوفيين من أمثال الشيخ إسماعيل الولي لنشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. ويؤكد ذلك أن مؤسسات التعليم التي نشأت في دولة الفونج تأثرت كثيراً بالبيئة المحلية التي كان يغلب عليها الطابع الصوفي وتجاوبت معها. ونظراً لمحدودية أساليب التعليم الحديث، فقد كان علماء الصوفية وأصحاب الرؤية الغيبية والمهتمين بالكرامات والأولياء هم أصحاب الغلبة. ويمكن القول أيضاً أن هذا النوع من التعليم والذي تركّز أساساً في المساجد والخلّوي قد أسهم مع المؤلفات والشروح في رفع الوعي وفي بروز مجموعة جديدة من الرجال لهم اهتماماتهم العلمية والثقافية ولهم مناهج أصيلة في التعامل مع الحكام المستعمرين ومع عامة السودانيين².

وكان على رأس هؤلاء العلماء المستنيرين الذين أثروا جوهرياً في مسارات التعليم في السودان الشيخ الطاهر الشبلي.

التعليم في العهد التركي (1821م - 1881م)

شهد العهد التركي استمرار التعليم الديني والخلّوي كمصدر أساسي للتعليم في السودان. فقد قامت الحكومة التركية بتقديم العون المادي ودفع مرتبات شهرية لبعض الفقهاء بغرض نشر الخلّوي في أجزاء كثيرة من السودان. ولعل من أشهر الخلّوي في ذلك العهد خلوة العبيد ود بدر في أم ضواً بان، التي درس فيها الشيخ الطاهر الشبلي، وخلوة المصوي عبدالرحمن في كركوج، وخلوة الشيخ محمد الخير أستاذ المهدي في بربر، وخلوة الشيخ محمد شريف نور الدائم بأم مرحي، وخلّوي الكتياب والجوير والدواليب في بارة، وخلوة الشيخ إسماعيل الولي في الأبيض، وخلّوي الختمية في شرق السودان، وخلّوي كوبي في دارفور.

¹ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

² محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (1820م-1956م)، مركز محمد عمر بشير، جامعة أم درمان الأهلية، 2005.

ولما كان الهدف الرئيسي من الاستيلاء على السودان هو استغلال الأراضي فيه بغرض الزراعة والتنقيب عن المعادن وخاصة الذهب وتجنيد السودانيين في الجيش الذي كان يقوم محمد علي باشا بإعداده لغزو الأجزاء الجنوبية المتاخمة للسودان والسيطرة على منابع النيل، فإن السياسة التعليمية لم تنحصر في تدعيم نظام الخلاوي فحسب - بالرغم من التركيز عليها - بل سعى محمد علي باشا لإنشاء بعض المدارس الحديثة وإيفاد بعض السودانيين إلى مصر للدراسة في الأزهر الشريف وإرسال بعضهم لكي يدرسوا العلوم الحديثة. وأنشأ الحكم التركي عدداً من المدارس الابتدائية في كل من الخرطوم وبربر ودنقلا وكردفان وكسلا وسواكن وسنار وجوبا. وتخرج عدد قليل من السودانيين للعمل في دواوين الحكومة في الوظائف الصغرى التي لا يوجد من يقوم بها من المصريين والأتراك. وتم تشييد مدرسة الخرطوم التي افتتحت في عهد عباس الأول. وكان أول ناظر بها هو رفاعة رافع الطهطاوي، حيث كانت تضم حوالي المائتين من التلاميذ من أبناء الحكام الأتراك وأبناء السودانيين. وكانت مناهجها شبيهة بالمناهج في المدارس المصرية، وتقوم إلى جانب تحفيظ القرآن وتعليم اللغة العربية، بتعليم العلوم المدنية واللغة الفرنسية واللغة التركية. وقد أدت مدرسة الخرطوم والمدارس الشبيهة الأخرى خدمات جليلة للإدارة التركية إذ مدتها بالكتابة والمحاسبين وعمال التلغراف¹.

وشهد عام 1870م افتتاح مدارس أخرى في كل من بربر ودنقلا وكردفان ومدرسة للتلغراف في الخرطوم وأخرى في كسلا. وتم اختيار مجموعة من الخريجين لتعليمهم الطب والهندسة، حيث تم افتتاح مدرسة للطب عام 1879م.

ومن ناحية أخرى فقد شهد العهد التركي إلى جانب إنشاء المدارس الحديثة في السودان السماح بنشاط الإرساليات في ضوء الاتفاق بين سلطان تركيا وإمبراطور النمسا. فوصل الخرطوم جماعة من المبشرين المسيحيين وقاموا ببناء كنيسة ومدرسة التحق بها أبناء الأقباط وأبناء الأوروبيين المقيمين في الخرطوم وبعض التلاميذ السودانيين. واشتملت المناهج

¹ مكي شبكية، السودان عبر القرون، بيروت 1965.

في تلك المدرسة على اللغات العربية والفرنسية والإيطالية والحساب والموسيقى والأعمال اليدوية. وقد بلغ عدد التلاميذ في وقت من الأوقات حوالي الأربعين أغلبيتهم من السودانيين . ويعتبر الأب دانيال كمبوني من أبرز العاملين في حقل التبشير المسيحي في هذه الفترة. حيث نشر كمبوني كتاباً في عام 1846م أوضح فيه أن التعليم هو الوسيلة الرئيسية للتحويل واعتناق المسيحية، وأوضح أن هذا لن يتحقق إلا بواسطة قساوسة من بني جلدتهم يدرّبون لهذا الغرض. واختار مديرية كردفان المجاورة لجنوب السودان مركزاً للنشاط التبشيري وافتتح مدرسة مهنية في الأبيض بلغ عدد طلابها في عام 1876م نحو 100 طالب. وأنشأ بجانبها مزرعة كانت تعيش عليها نحو 700 أسرة يتدرب أفرادها على الزراعة. كما أسس مدرستين في كل من بربر وسواكن.

وفي عام 1877م بلغ عدد طلاب مدرسة الخرطوم نحو 500 من البنات والأولاد واختار الأب كمبوني ثلاثة من السودانيين وأرسلهم إلى معهد فيرونا في إيطاليا وثمانية عشرة فتاة أرسلهن للتدريب في القاهرة. ونتيجة لهذا النجاح الذي تحقق على أيدي المبشرين الكاثوليكين الذي لفت أنظار الكثيرين في الداخل والخارج خاصة الإداريين والأوروبيين ومن بينهم - غردون - طلب منهم أن يساهموا في إعادة تنظيم النشاط التبشيري في جنوب السودان. ولكن هذا لم يتحقق بسبب موت كمبوني في عام 1881م واندلاع الثورة المهدية في عام 1885م.

ويجدر بالذكر أن النظام التعليمي في العهد التركي قد أفرز عدداً من العلماء والشيخوخ في السودان ذوي الارتباط الوثيق مع الحاكم التركي. وقام هؤلاء المنتفعون بمعارضة الثورة المهدية عند اندلاعها. ولكن الأغلبية العظمى من السودانيين، بما في ذلك عدد كبير من الشيخوخ والعلماء الوطنيين، وقفوا بصلابة إلى جانب الثورة المهدية التي كان من أهم أعمالها إلغاء المدارس والكتاتيب التي أنشأها النظام التركي وتحرير الخلوة من سيطرة الدولة¹.

¹ محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (1820م-1956م)، مركز محمد عمر بشير، جامعة أمدرمان الأهلية، 2005.

التعليم في دولة المهديّة (1881م - 1898م)

ولد محمد أحمد بن عبد الله بن فحل (المهدي المنتظر) في جزيرة لبب بدنقلا عام 1843م في أسرة اشتهرت بصناعة المراكب والسواقي. وعندما قلت الأخشاب في دنقلا هاجرت أسرته الي كرري شمال أمدرمان. وبدأ المهدي دراسته في خلوة كرري، ومنها انتقل إلى خلوة الخرطوم ومنها انتقل إلى قرية كترانج بالجزيرة وتعلم فيها على يد الشيخ الأمين الصويلح. وواصل تعليمه في خلاوي الغبش بالقرب من بربر، وتعلم علي شيخها محمد الخير. ثم انتقل إلى خلوة أم مَرّحي بشمال الخرطوم، وتعلم علي يد شيخها محمد شريف نور الدائم (حفيد الشيخ أحمد الطيب البشير، مؤسس الطريقة السمانية في السودان). وفي خلوة أمّرحي تمت إجازة الفتى محمد أحمد المهدي على الطريقة السمانية، وأذن له شيخه بالذهاب بحرية إلى حيث يريد ليعلم القرآن، ويشر للطريقة السمانية. وبعد ذلك رحل المهدي إلى مدينة الخرطوم، ثم إلى الجزيرة أبا حيث شيد فيها مسجداً وخلوة. وتواصل ارتباط المهدي بالطريقة السمانية بفضل الشيخ القرشي ود الزين. ولما توفي شيخه القرشي قرر المهدي بناء قبة علي قبره تخليداً لذكراه، الأمر الذي يؤكد الخلفية الصوفية للمهدي. وبعد فراغ المهدي من بناء قبة شيخه عاد إلى الجزيرة أبا وشرع في التخطيط لمقاومة الحكم التركي - المصري مرتكزاً على إعدادة الديني القوي، وتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وفداحة الضرائب، والعنف الممارس ضد السودانيين، وضعف الخديوي محمد رءوف.

وفي عام 1880م شرع المهدي في الإعداد العملي للثورة فقام بزيارات دعوية سرية لمدن في كردفان وجبال النوبة وأسر بدعوته لبعض زعماء الأبيض منهم إلياس باشا أم برير وأولاد سوار الذهب وأولاد العريق وأدم أم دبالو ملك جبال تقلي. ويذكر أن هذه المناطق كانت قد انتشر فيها الإسلام بسبب المجهودات الكبيرة التي قام بها الشيخ إسماعيل الولي في نشر تعاليم الدين الحنيف. ومن ثم توالى انتصارات المهدي في الجزيرة أبا وقدير والقضاء على حملة الشلالي وتحرير الأبيض في يوليو 1882م

وشيكان في عام 1883م حيث أيدت حملة هيكس. وبعد ذلك سيطر المهدي على البلاد بعد حصار الخرطوم وتحريرها وقتل غردون في 26 يناير 1885م. وشرع مباشرة في تأسيس دولته، ولكن المنية عاجلته بعد خمسة أشهر فقط من تحرير الخرطوم، وتسلم زمام الأمور خليفته عبد الله التعايشي.

وبعد السيطرة على الأوضاع في البلاد سعت الثورة المهدية لإحداث تغيير شامل في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولكن التغيير لم يتم بالصورة المرجوة خاصة في مجال التعليم، حيث استمرت الخلاوي كمصدر رئيسي لتعليم الصغار والكبار. وعضد ذلك الاتجاه رفض الثورة المهدية للمؤسسات التعليمية الأجنبية «مؤسسات الترك». كما رفضت المهدية الطرق الصوفية، وضايقت العلماء الذين تعاونوا مع الحكام الأتراك والذين أسماهم المهدي والخليفة «علماء السوء».

وشارك زملاء المهدي وتلاميذه في التدريس في خلوة الجزيرة أبا مشاركة فعالة، وكان المهدي ينظم حلقات لتدريس القرآن والحديث والسيرة للأنصار المقاتلين في الجيش، وحلقات لتحفيظ القرآن، وتعليم أبناء الأنصار وعائلاتهم المصاحبين للجيش أثناء زحفه نحو الخرطوم. وبعد تحرير الخرطوم وانتقال المركز السياسي والعسكري الرئيسي للدولة لأم درمان، وبعد موت المهدي شجع الخليفة عبد الله تعليم القرآن من خلال حلقات التدريس والتعليم التي نشأت في الأحياء المتعددة في أم درمان ومن خلال خلاوي القرآن. ومن أشهر الخلاوي في مدينة أم درمان في عهد الخليفة خلوة السيد المكي بحي السيد المكي، وخلوة ود مكاوي في حي الركابية، وخلوة الشيخ الجعلي في ود نوباوي، وخلوة الفكي الضرير بحي السيد المكي، وخلوة ود كنة، وخلوة موسي الأحمدي. وكانت بعض هذه الخلاوي تقوم إلى جانب تعليم القرآن والكتابة بتدريس الحساب. وشجع الخليفة تدريس القرآن والحديث وقراءة الراتب لنساء كبار الأنصار وبناتهن بواسطة شيوخ وعلماء يختارون لهذا الغرض. واشتهرت في مجال تعليم النساء خديجة بنت الفكي علي - إحدى زوجات المهدي - إذ كانت تطوف على النساء في منازلهن لتعليمهن، وكذلك الشيخة بنت ود عبد الرحيم ود أب صيغة

من أهالي الأبيض، والشيخة رقية بنت عبد القادر من أهالي جزيرة توتي¹. وأمر الخليفة عبدالله الحكام والولاية بدفع رواتب للفقهاء والمشايع الذين يعملون في الخلاوي وبالرغم من أن الثورة المهدية قد وضعت حداً للنشاط التبشيري المسيحي وألغت المدارس الحديثة والمهنية التي كان العهد التركي قد أنشأها من قبل لتعليم بعض المهارات والصناعات إلا أنها قد استوعبت بعض خريجي هذه المدارس في بعض أعمال الدولة وفي كتابة الرسائل والمنشورات وفي الأعمال العسكرية وفي بيت المال .

ولقد تأثرت العلاقات الثقافية بين السودان ومصر في هذه الفترة ولم تعد مصر والأزهر قبلة الطلاب لتلقي العلم والتدريب كما كان الحال من قبل . ولقد قامت المطبعة التي استولي عليها الثوار عند سقوط الخرطوم بطباعة بعض المؤلفات من بينها كتاب إسماعيل عبدالقادر الكردفاني عن المهدي وكتابه عن إثيوبيا وكتاب الطاهر ود تاتاي عن الشرق الذي لأعده حمد المجذوب ورسائل المهدي إلى عثمان دقنه أعدها المجذوب أبوبكر يوسف وأسهم كل من عوض الكريم المسلم والحسين ود الزهراء في مجال الكتابة.

التعليم في فترة الحكم الثاني (1898م - 1911م) :

بعد شهرين فقط من انتهاء معركة كرري فكر اللورد كتشنر في تأسيس مدرسة لتخليد ذكرى غردون باشا الذي قضى على أيدي أجداد الشيخ الطاهر الشبلي ورفاقهم الأشداء في معركة الخرطوم في عام 1895م. ووجه كتشنر الدعوة للشعب البريطاني للتبرع لإنشاء كلية جامعية في السودان لتخليد اسم غردون باشا. وقال كتشنر مخاطباً الشعب البريطاني من جامعة أدنبره بإسكتلندا بوصفه حاكماً جديداً للسودان بعد انتصاره في معركة كرري «من الأفضل والمفيد لأولئك الذين يدفعون مالا للإعلان عن بضائعهم أن ينفقوا شيئاً من المال لتعليم سكان تلك السوق الجديدة التي فتحت

¹ محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (1820م-1956م)، مركز محمد عمر بشير، جامعة أم درمان الأهلية، 2005.

أمامهم (السودان) حتى يقرأ أهالي تلك السوق الإعلانات» وهذا يوضح بجلاء الأهداف الاستعمارية الحقيقية لإنشاء كلية غردون. وقد كتشنر احتياجاته المالية بمائة ألف جنيه إسترليني. وكانت استجابة البريطانيين أكبر من توقعات كتشنر فجمعت مائة وعشرين ألف جنيه في ستة أسابيع. ووضع اللورد كرومر حجر الأساس في الخامس من يناير عام 1899م. وقام كتشنر بافتتاح كلية غردون في شكل مدرسة أولية في الثامن من نوفمبر في عام 1902م، ثم رُفِّعت لمدرسة ثانوية في عام 1905م¹.

ويجدر بالذكر أن البريطاني جيمس كريكان قد عُيِّن مديراً لمصلحة المعارف وناظراً لكلية غردون التذكارية سنة 1900 حيث وضع أهدافاً للتعليم في السودان تتمثل فيما يلي :

- خلق طبقة من الصناع المهرة لدعم جهود ربط الاقتصاد السوداني ببريطانيا.
- نشر التعليم المحدود بين السودانين بالقدر الذي يساعدهم فقط على معرفة القواعد الأولية لجهاز الدولة.

- تدريب السودانين لشغل الوظائف الحكومية الهامشية في جهاز الإدارة لإحلال الموظفين المصريين والسوريين.

- تدريب السودانين للعمل في الجيش للتخلص التدريجي من الضباط والجنود المصريين درءاً لاحتتمالات التمرد تأثراً بحركات التحرير في مصر.

وكان السلم التعليمي في هذه الحقبة يتكون من ثلاث مراحل بواقع أربع سنوات لكل مرحلة وهي: المرحلة الأولية، والمرحلة الابتدائية أو الوسطى، والمرحلة الثانوية. وبدأ جيمس كري بإنشاء مدرسة ابتدائية واحدة في أم درمان في عام 1900م، وارتفع العدد إلى سبع مدارس بنهاية نفس العام. ونظراً لعدم وجود مدارس أولية في ذلك الوقت، فقد اقتصر القبول للمرحلة الابتدائية على الطلاب خريجي الخلاوي. كما أنشأ

¹ محمد عمر بشير، التعليم في السودان في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (1820م-1956م)، مركز محمد عمر بشير، جامعة أم درمان الأهلية، 2005.

كلية لتدريب المعلمين والقضاة بأم درمان في 1900م بالإضافة إلى مدرسة الصناعة بأم درمان. وانشئت فيما بعد مدارس المرحلة الأولية لتمثل بداية الهيكل التعليمي النظامي، حيث يلتحق الطلاب بعدها بمدارس المرحلة الابتدائية .

وعلى الرغم من أن بداية كلية غردون كانت كمدرسة أولية، إلا أن كتشنر كان ينظر إليها كمنازة للتعليم في السودان رغم معارضة الكثيرين الذين وصفوا فكرته بأنها بالغة الطموح. بيد أن الأيام أثبتت رجاحة فكرة كتشنر وجيمس كري حول مستقبل الكلية، سيما بعد استكمال مؤسسات التعليم المغذية للكلية الوليدة¹.

وعند اكتمال مباني كلية غردون في عام 1903م، انتقلت كلية المعلمين التي كانت بمثابة نواة لكلية غردون من أم درمان إلى مباني الكلية فور اكتمال تشييدها. كما تم نقل مدرسة الخرطوم الابتدائية إلى مباني الكلية أيضاً. وأضيف إلى هذه المدارس مركز جديد للتدريب مجهز بورشة يمارس فيها الطلاب أعمال النجارة والرسم الهندسي ويتلقون مبادئ الهندسة الميكانيكية. وشهد العام 1905م بداية تطبيق نظام الدراسة الثانوية في كلية غردون بعد اكتمال المرحلة الابتدائية. وقد قسمت الدراسة في المرحلة الثانوية إلى قسمين: القسم الأول لمدة عامين لتخريج مسّاحين، والقسم الثاني لمدة أربع سنوات لتخريج مساعدي مهندسين وملاحظين. وأضيف إلى الكلية جناح خاص للمدرسة الحربية لتخريج ضباط سودانيين. وكان هناك تركيز على الطلاب من ذوي الأصول الإفريقية، ولم يقبل إلا عدد محدود من الطلاب المنتمين إلى أصول عربية. وشهد عام 1906م، إنشاء قسم لتخريج معلمين للمدارس الأولية تمتد فترة الدراسة فيه لمدة أربع سنوات بعد المرحلة الابتدائية. وبذلك أصبحت كلية غردون متخصصة في إعداد الإداريين والفنيين والمعلمين للعمل في المرافق الحكومية المختلفة.

²ويكيبيديا الموسوعة الحرة، التلخيص في السودان،
<https://ar.wikipedia.org>

المدرسة الحربية (1908) :

شهد عام 1908م إنشاء المدرسة الحربية بواسطة حكومة المستعمر لتخريج الضباط السودانيين للعمل في الجيش. وقد تم ذلك في إطار سياسة الحكم الثنائي في تدريب السودانيين ليشغلوا الوظائف التي كان يشغلها المصريون، سيما في المجال العسكري. ويرد ذلك إلى التمرد الذي قامت به كتيبة سودانية تتألف من نحو 800 عسكري في عام 1903م، حيث وجهت حكومة المستعمر الاتهام لبعض الضباط المصريين بتحريض السودانيين للقيام بهذا التمرد. وتفادياً لتكرار مثل هذا التمرد واتساع رقعة المقاومة العسكرية لحكومة المستعمر، قامت السلطات بإنشاء المدرسة الحربية. وكان المسؤولون يحصرون الاختيار للمدرسة الحربية في خريجي المدارس الابتدائية. وكانت أفضلية الاختيار تمنح للعناصر غير العربية أو الزنحية التي لم تشارك في الثورة المهدية. وكان الهدف من هذا الاختيار النوعي ضمان أن المجندين يدينون بالولاء التام للخديوي ويؤدون القسم أمامه بالولاء والطاعة قبل تعيينهم في الجيش¹. وتجد الإشارة إلى أنه وبالرغم من حرص حكومة المستعمر على حصر الانضمام للمدرسة الحربية في العناصر ذات الولاء فقد شهد يوم الخامس عشر من أغسطس عام 1924م التمرد الشهير للطلبة الحريين في المدرسة الحربية بقيادة البطل علي عبد اللطيف. وانداحت بعد ذلك حركات المقاومة العسكرية ضد المستعمر لتشمل تمرد كتيبة السكة الحديد العسكرية في عطبرة وبورتسودان، وتمرد كتيبة ملكال تضامناً مع عمال الري المصري.

¹ رزق يونان ليب، السودان في عهدالحكم الثنائي الأول 1899م 1924م ، القاهرة 1976م، ومحمد عمر بشير، سبق ذكره

التعليم في السودان بعد تأسيس مدرسة الهداية عام 1912م:
التعليم في فترة الحكم الثنائي (1913م - 1956م):
المعهد العلمي :

شهد العام الذي أسس فيه الشيخ الطاهر الشبلي مدرسة الهداية في أم درمان (1912م) تأسيس المعهد العلمي بمبادرة من الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم الذي تم تعيينه شيخاً للعلماء خلفاً للشيخ محمد البدوي الذي توفي في أواخر عام 1911م. وما يجدر ذكره أن منصب شيخا العلماء كان قد عرض بواسطة الإنجليز على الشيخ الطاهر الشبلي ولكنه رفضه رفضاً باتاً لثلاثة أسباب: أولها عزمه الأكيد على تأسيس مدرسة الهداية كأول مدرسة أهلية نظامية في السودان. وثانيهما رفضه المطلق لشروط الإنجليز القاضية بأن تنحصر مهمة العلماء في التعليم. الديني فقط دون نشر الوعي بين السودانيين وتأليبهم ضد المستعمر. وكان السبب الثالث البغض الشديد الذي يكنه الشيخ الطاهر الشبلي للإنجليز لحصدهم أهله الشجعان في معركة كرري التاريخية عام 1998م. والسبب الرابع اعتقاده الجازم بأن طلابه من خريجي مدرسة الهداية الذين يقف على تربيتهم وتعليمهم سيقودون معركة التحرير ضد المستعمر.

وبعد موافقة الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم على قبول ذلك المنصب اشترط أن يؤسس معهداً علي غرار الأزهر الشريف. ووافقت الإدارة البريطانية الحاكمة على فكرة قيام المعهد بشرط أن يكون هدفه العلم من أجل العلم دون الدخول في نشاطات تؤثر على حكمهم الغاصب. كما اشترطت عدم توظيف خريجي المعهد في الوظائف الحكومية. واشترطت الحكومة أيضاً عدم مسؤوليتها عن الصرف على المعهد من ميزانيتها. وكان على رأس الأسباب التي قادت حكومة المستعمر على الموافقة على إنشاء المعهد كونه يمثل بديلاً لسفر طلاب العلم إلى الأزهر ويجنبهم مؤثرات الحركة الوطنية المصرية. ووافق الشيخ أبو القاسم علي شروط حكومة الإنجليز لأنه لم يكن يأمل في مساعدتها أو دعمها. ورأى أن احتياج الناس للتعليم سيجعلهم يرفعون المعهد

ويقدمون له كل العون المطلوب. وبالفعل فقد قدم أهل أم درمان كل الدعم للمعهد، وتبرعوا لتشييد الجامع الكبير بأم درمان بمبانٍ ثابتة بعد أن كان مشيداً بالحصير كأول مقر للمعهد. وأوقفوا الأوقاف للمعهد وقدموا المأوى للطلاب وكانوا يستضيفونهم في منازلهم ويرعونهم ويهتمون بشئونهم مثل آبائهم. كما تبرعت بعض الأسر بتوفير الوجبات للطلاب الغرباء. وكان يطلق على تلك الوجبات اسم (الجرابة) فهناك من تبرع بعشر أو عشرين جرابية تكفي نفس العدد من الطلاب.

ويجدر بالذكر أن الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم ساعد على تنفيذ رغبة الحكومة في الضغط على العلماء للتدريس في مكان واحد هو الجامع الكبير بأم درمان وبنظام محدد، بعد أن كانوا مصرين على الاعتصام في منازلهم يلقون دروسهم فيها.

وفي يناير 1912م بدأت الدراسة في المعهد وسط احتفال كبير أمه وجهاء المدينة وألقيت فيه الخطب وبدأت الدراسة علي نفس المقررات التي كانت تدرس في الأزهر. والتحق بعض زملاء الشيخ الطاهر الشبلي في حلقات الشيخ محمد البدوي، ومنهم السيد محمد السيد الباقر الشيخ إسماعيل الولي، والشيخ إبراهيم أبو الزين بالتدريس في معهد أم درمان العلمي الذي أنشئ في نفس العام.

وتدرج الشيخ أبو القاسم بالدراسة علي نظام السنوات الأربع المتبع في الأزهر (ابتدائي-أوسط-عالي). وفي عام 1929م أكملت أول دفعة من الطلاب دراستها وكانت مكونة من أربعة طلاب أحرزوا الشهادة العالمية (تعادل الشهادة الجامعية) واعترف بها الأزهر. وبموجب ذلك الاعتراف بشهادات المعهد كان بعض الطلاب يتسللون لإكمال دراستهم في الأزهر فيتم قبولهم. وبذلك كان المعهد العلمي أول مؤسسة سودانية خالصة للتعليم الديني العالي الأهلي، بل يعتبر المؤسسة الرائدة في تقديم تعليم متكامل يبدأ من السنة الأولى وينتهي بالسنة الثانية عشرة¹.

¹ معتمد الحاج: التعليم الأهلي في أم درمان

البروفيسور كامل الباقر وترفيه المعهد العلمي إلى جامعة أم درمان الإسلامية:

شهدت الفترة الانتقالية قبيل استقلال السودان اهتمام وزير العدل الشيخ مدثر البوشي - سبط الشيخ إسماعيل الولي - بضرورة الحفاظ على الهوية الوطنية ومكافحة خطر الثقافة الاستعمارية. وقام الشيخ مدثر البوشي باستصدار قرار من الهيئة البرلمانية للحزب الوطني الاتحادي، ومن الجمعية التأسيسية، ومن مجلس الوزراء، قضى بإنشاء مصلحة للشؤون الدينية. ومن ثم تم تعيين الشيخ هاشم أبو القاسم مديراً لها، والبروفيسور كامل الباقر مراقباً عاماً لهذه المصلحة.

ويذكر أن البروفيسور كامل الباقر - حفيد الشيخ إسماعيل الولي - قد ولد في عام 1918م ونشأ في حي السيد المكي بأم درمان، وتلقى تعليمه الأولي في مدرسة الهداية على يد الشيخ الطاهر الشبلي، ثم واصل تعليمه في المعهد العلمي حتى التحق بجامعة القاهرة في مصر، ثم حصل على درجة الدكتوراه في بريطانيا. وتدرج في مناصب العمل المتعددة حيث عمل أستاذاً بجامعة عين شمس والأزهر الشريف خلال الفترة 1952 - 1954م، وتولى إدارة مصلحة الشؤون الدينية بالخرطوم خلال الفترة 1955 - 1965م. ثم عمل في منصب المدير المؤسس لجامعة أم درمان الإسلامية وأدارها عام 1965م. وعاد مديراً للجامعة مرة أخرى في عام 1975م. وعمل أيضاً أستاذاً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وأستاذاً بكلية التربية بالرياض. وكان البروفيسور كامل عضواً بالمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية، وعضواً برابطة العالم الإسلامي، وعضواً بمجلس المساجد العالمي، ورابطة الجامعات العربية، وسكرتيراً للهيئة الوطنية للدستور الإسلامي الكامل.

وكان من بين مهام مصلحة الشؤون الدينية الإشراف على المعاهد العلمية الدينية. وكان البروفيسور كامل الباقر مؤمناً بتكامل تعاليم الدين الإسلامي وشموليته حيث كتب: «إن الدين كيان له وظيفة اجتماعية جاء ليسهم في حل مشاكل البشرية المعقدة، وإذا عجز الدين عن حل هذه المشاكل فلنبحث عن أسباب هذا العجز، فهي في نظري ليست طبيعية. نريد أن يكون الدين مظهراً من مظاهر القوة والعزة والاحترام، كما

هو ينبوع من ينابيع الصفاء والسمو الروحي. والذين ينحرفون بالدين عن هذا المفهوم مخطئون، لأنهم يجهلون طبيعته. والذين تسيطر عليهم فكرة أن الدين لله وأن الدنيا لقيصر، مخطئون أيضاً لأن مثل هذه الدعاوى ترمي إلى عزل الناس وشلّ حيويهم¹. ويجدر بالذكر أن المعهد العلمي كان النواة الأولى لجامعة أم درمان الإسلامية، حيث قام البروفيسور كامل الباقر بتأسيس هذه الجامعة في عام 1965م. وقد شهدت فترة تأسيسه لجامعة أم درمان الإسلامية وإدارتها في ستينيات القرن العشرين الاستفادة من صلاته القوية بالعلماء المصريين واستقدم البروفيسور أحمد عبد العزيز النجار وأشرف عليه لينشئ قسم الاقتصاد الإسلامي بجامعة أم درمان الإسلامية، الذي أصبح نواة أولى لتطبيق الاقتصاد الإسلامي وقيام البنوك الإسلامية في السودان. وقد مثل ذلك الانجاز سبقاً في هذا المجال. كما قام البروفيسور كامل الباقر بتوسيع إطار مساقات الدراسة المتخصصة في جامعة أم درمان الإسلامية، حيث أصبحت تستوعب الكثير من العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل الفلسفة، والتاريخ، وعلم النفس، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والتوثيق والمكتبات، والصحافة والإعلام. وبذلك فقد أسهم بكفاءة واقتدار في تطوير معهد أم درمان العلمي لا ليصبح جامعة تقليدية تقوم بتدريس العلوم الدينية فحسب، بل لتصبح جامعة عصرية تزخر بالمرجات العلمية في مختلف المجالات والمساقات.

مدرسة كتشنر الطبية 1924م:

أعلن مشروع إنشاء مدرسة الطب تخليداً للورد كتشنر الذي غرقت سفينته التي كانت تنقله إلى روسيا بواسطة لغم ألماني في البحر أثناء الحرب العالمية الأولى في العام 1916م. وتم افتتاح مدرسة كتشنر الطبية في 29 فبراير 1924م (بعد 12 سنة من تأسيس مدرسة الهداية بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي) على نفقة الحكومة

¹ محمد وقيع الله : عن سيرة الراحل الحضاري كامل الباقر مؤسس جامعة أم درمان الإسلامية العتيقة . سودانيز أونلاين 2017/2/9.

وأوقف أحمد هاشم البغدادي (1875-1933) ذي الأصول الفارسية والمولد العراقي حيث أوقف جميع ثروته للصرف على الكلية. وقام عدد من السودانيين في عام 1924م بالتبرع لإنشاء مدرسة كتشنر الطبية لتعليم أبنائهم. كما تم الحصول على مبلغ ألف جنيه من «صندوق لورد كتشنر التذكاري الوطني» في لندن. ويجدر بالذكر أن مدرسة كتشنر الطبية تعتبر أول مدرسة طب في شمال إفريقيا تنشأ على منهج متناسق ومتكامل ولم تقتيد بمنهج كليات الطب بالإنجلترا.

وكان من بين أهداف إنشاء مدرسة كتشنر الطبية بناء كادر طبي سوداني مؤهل للعمل على مكافحة الأمراض الوبائية والمتوطنة بالبلاد، والتي أضرت بصحة ورفاه المواطنين وأضعفت النمو السكاني وأقعدت البلاد عن التقدم والنماء، ومنح المتعلمين من الأهالي في السودان الفرصة كاملة ليلعبوا أدواراً مهمة في تنمية وتطوير بلادهم، وقدم منحاً لمن أكمل الدراسة والتدريب في السودان لعمل دراسات عليا وأبحاث. وتكونت الدفعة الأولى في عام 1924م من سبعة طلاب، وتخرجوا بنجاح في عام 1928م. وقد تألف منهج الدراسة من مقررات عام ونصف يقضيها الطالب في مدرسة العلوم، ويقضي بعد نجاحه في الامتحان النهائي أربعة أعوام ونصف في مدرسة كتشنر الطبية، مما يعني أن الطالب يقضي على الأقل ستة أعوام في الدراسة الجامعية¹.

المدرسة الأهلية (1927م)

أصدرت إدارة المدرسة الإرسالية الأمريكية بأم درمان في عام 1927م قراراً يلزم التلاميذ المسلمين بحضور دروس الديانة المسيحية وطالبت أولياء أمورهم بكتابة إقرار بموافقتهم على ذلك أو سحب أبنائهم من المدرسة. وفور صدور هذا القرار تداعى أعيان ومتعلمي وتجار مدينة أم درمان لمواجهة هذا المد التبشيري وإيقافه عند حده. وخطب في جمعهم الكبير الشيخ إسماعيل الأزهري مفتي الديار منادياً بترك المدارس الأجنبية

¹ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

(<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%84%D9%81%D8%A7%D9%8A%D8%A7>)

وعدم الاعتماد على حكومة المستعمر في تعليم أبنائهم. وقال: (ماذا ينقصكم يا أهل أم درمان فالأرض واسعة والمال متوفر والمتعلمون معنا والتلاميذ في حاجة للتعليم لماذا لا نبدأ الآن ونؤسس المدرسة الأهلية التي نرعاها ونقبل فيها كل راغب في التعليم؟). وكانت هذه ضربة البداية لتأسيس المدرسة الأهلية بأم درمان في عام 1927م (بعد نحو 15 سنة من تأسيس مدرسة الهداية على يد الشيخ الطاهر الشبلي). وفتح باب التبرعات فبلغت قيمتها ثلاثة آلاف جنيه، وتبرع عدد من النساء بحليهن الذهبية لصالح قيام المدرسة الأهلية. كما تبرع أحد تجار أم درمان الشيخ أحمد حسن عبد المنعم بمنزل يمتلكه شرق سوق أم درمان لتبدأ الدراسة فيه. وفي الأول من أكتوبر عام 1927م بدأت الدراسة في المدرسة الأهلية بفصلين ابتدائيين. وعندما مُنحت المدرسة قطعة أرض في عام 1929م - شمال منزل الزعيم إسماعيل الأزهري، تبرع أهل أم درمان لبنائها وأقيمت الأسواق الخيرية ومثلت المسرحيات وأهدي الناس جلود الأضاحي ليكون عائدها لصالح بناء المدرسة الأهلية. وانداح في مدينة أم درمان وكافة أرجاء السودان شعور وطني عارم ألهمه الشيخ الطاهر الشبلي بتأسيسه لمدرسة الهداية.

وساعد في إلهاب حماس المواطنين نشيد الشاعر مصطفى يوسف التني الذي نادى بنبذ الفرقة ودعم التعليم الأهلي الذي ابتدره الشيخ الطاهر الشبلي بتأسيس مدرسة الهداية عام 1912م. وكانت أجهزة المخابرات الاستعمارية تحظر ترديد هذا النشيد الملهم في الأماكن العامة خوفاً من إثارة المشاعر الوطنية ضد المستعمر وأعوانه من السودانيين.

بين ضلوعي الوطن العزيز	في الفؤاد ترعاه العناية
عندي معهد وطني العزيز	ما بخش مدرسة المبشر
ما بندور عصبية القبيلة	نحن للقومية النبيلة
تزيد مصائب الوطن العزيز	تربي فينا ضغائن وبيلة

ونتيجة لنجاح تجربة المدرسة الأهلية في أم درمان اندفع الناس في أنحاء مختلفة من المدن في السودان لتأسيس المدارس الأهلية، التي كان في ريادةها مدرسة الهداية لمؤسسها الشيخ الطاهر الشبلي عام 1912م.

ملجأ القرش الصناعي (1931م)

أدت سياسات المستعمر لتفشي ظاهرة التشرد وسط الأطفال الذين امتلأت بهم الأسواق والطرقات بلا مأوى ولا رقيب. وأدى انتشار هذه الظاهرة إلى مضاعفة الشعور بالغبن لدى المواطنين. وفي عام 1931م كتب الأستاذ عبد الفاتح المغربي المدرس في كلية غردون مقالاتين في جريدة حضارة السودان منادياً بتأسيس ملجأ لهؤلاء الأطفال المشردين إسوة بملجأ زاره في مدينة المنصورة بمصر. واقترح الأستاذ رمضان عبدالرحمن البداية في تشييد الملجأ بجمع اشتراكات وحدتها مبلغ قرش واحد فقط حتي يستطيع كل فرد من الأفراد أن يساهم في بناء ذلك الصرح المهم¹.

وشهد عام 1936م (بعد نحو 24 سنة من تأسيس مدرسة الهداية) افتتاح ملجأ القرش كمدرسة صناعية بدأت بالنسيج والسجاد والأحذية وصناعات الجلود بهدف تحسين الصناعات المحلية وتطويرها، وأنشئ فيه قسم عالٍ للدراسة النظرية حتي يستطيع خريجوه هذا القسم دراسة هذه الصناعات في مصر أو أي بلد آخر ليتولوا مستقلاً إدارة الملجأ. وكان ملجأ القرش أول مدرسة أهلية صناعية يتعلم فيها الأيتام والمشردون وأبناء الفقراء مهنة تكفيهم شروء التسول والتشرد. وفي عهد الحكم الوطني بعد الاستقلال تغير اسم الملجأ إلى معهد القرش الصناعي وتطورت مهامه في مجالات التدريب المهني.

بخت الرضا (1934):

أدى إضراب طلاب كلية غردون 1930م إلى تعيين الحاكم العام للجنة لتقصي الحقائق في نظم التعليم في السودان، سيما في أعقاب موجة الوعي والحس الوطني التي انتشرت في السودان، والتي كان على رأسها الزعيم اسماعيل الأزهري، الذي درس في مدرسة الهداية على يد الشيخ الطاهر الشبلي. ويجدر بالذكر أن المستر

¹ مذكرات خضر حمد، الحركة الوطنية السودانية - الاستقلال ومابعده ، مطبعة صوت الخليج، الشارقة ، 1980.

اسكوت، المفتش الأول للتعليم كان قد أعد مذكرة انتقد فيها سياسة التعليم ونظمه، ودعا إلى إجراء إصلاحات أساسية. وفي ضوء هذه المذكرة، عين الحاكم العام لجنة برئاسة ونتر (مدير مصلحة المعارف آنذاك) ضمت في عضويتها مستر أسكوت والسكرتير الإداري، كما عين المستر قريفيث مقررًا لها. وقد تبنت اللجنة آراء اسكوت حول التركيز على المدارس الأولية وإعداد المعلمين. وكان من أهم توجهات اللجنة إنشاء معهد لتدريب المعلمين بمنطقة ريفية وتطوير مناهج لإعداد المعلمين. وقد أوكلت مهمة إنشاء هذا المعهد في عام 1934م (بعد 22 سنة من تأسيس مدرسة الهداية) لمستر قريفيث حيث قام بالاتصال بمديري المديرية لتسهيل مهمته، ولكنه لم يجد الموافقة إلا من مدير مديرية الدويم وهو زميل دراسة سابق، حيث منحه قطعة أرض شمال الدويم (وهو مكان بخت الرضا الحالي). واسم "بخت الرضا" كان لامرأة تسكن في تلك المنطقة وتقوم بحراسة مخازن العيش (المطامير) صادفها مستر قريفيث عند بحثه لتحديد موقع بناء المعهد لذلك سمي بمعهد بخت الرضا.

وقد هدف المعهد إلى تدريب مدرسي المدارس الأولية، ووضع مقررات وكتب للتلاميذ وإعداد مراجع إرشادية للمدرسين بالمدارس الأولية، وتنظيم دورات لتأهيل المعلمين الذين لم يتلقوا التدريب ببخت الرضا، من أجل تحسين قدراتهم وتمكينهم من مواكبة تدريس المقررات الجديدة، ونشر التعليم الأولي في الريف، ووضع المناهج والكتب التي تخدم أغراض وأهداف نشر التعليم الريفي.

وفي أكتوبر من عام 1943م تم نقل مدرسة العرفاء (وهي مدرسة لإعداد المعلمين) من كلية غردون إلى بخت الرضا. وتم إنشاء أول قسم للتفتيش الفني في تاريخ التعليم بالسودان. وقد بدأ هذا القسم نشاطه في بخت الرضا ثم أصبحت له فروع في المديرية الأخرى. وقد احتفظ قسم بخت الرضا بخصوصيته المتصلة بمعرفة احتياجات المعلمين في مجال التدريب مع متابعة تنفيذ المناهج في الحقل. تم افتتاح كلية المعلمين الوسطى به لتدريب معلمي المرحلة المتوسطة.

وفي عام 1973م تم ضم المعهد لجامعة الخرطوم ليصبح نواة لأول كلية تربية بالسودان. وفي عام 1969م عقد أول مؤتمر قومي جامع لمناقشة قضايا التعليم ومن أهم توصيات المؤتمر تغيير السلم التعليمي ليصبح (8 - 4) وتحديد أهداف التعليم والتوصية ببناء مناهج تخدم تلك الأهداف. إلا أن وزير التربية والتعليم آنذاك (الدكتور محي الدين صابر) لم يتبنى توصية المؤتمر فيما يتعلق بالسلم التعليمي وفضل عليها توصية وزراء التربية العرب الذي حدد السلم التعليمي للدول العربية ليصبح (6 - 3 - 3). وفي عام 1997م صدر مرسوم رئاسي مؤقت سمي قانون جامعة بخت الرضا لسنة 1997م، آلت من خلاله للجامعة جميع حقوق كلية التربية ببخت الرضا¹.

مدرسة الأحفاد (1930):

تقاعد الشيخ بابكر بدري من وظيفته كمفتش تعليم عام 1929م وأخذ يفكر في تأسيس مدرسة لتعليم أحفاده (أي بعد 17 عاماً من تأسيس مدرسة الهداية). وافتتح أول فصل باسم الأحفاد بعد التصديق الرسمي من الحكومة بمدينة رفاعة في أول أبريل سنة 1930م بسبعة وعشرين ولداً، ثمانية من أحفاده وتسعة عشر من أولاد من تخرجوا علي يديه. وتم انتقال المدرسة لأم درمان في يناير 1932 وبدأت بمنزل الأستاذ عبيد عبد النور الذي تبرع به لمدة سنتين². وتقدم الشيخ بابكر بدري في عام 1932م (أي بعد 20 عاماً من تأسيس مدرسة الهداية) بطلب إنشاء مدرسة متوسطة وتمت موافقة سلطات مصلحة المعارف وبدأت الدراسة في أوائل عام 1933م. وفي عام 1943م اكتملت جهود الشيخ بابكر بدري بتأسيس القسم الثانوي. واستمراراً لريادة الشيخ بابكر بدري في تعليم البنات في السودان فقد بدأ

¹ ويكيبيديا الموسوعة الحرة، معهد التربية، بخت الرضا،

(<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%84%D9%81%D8%A7%D9%8A%D8%A7>)

² مدارس الأحفاد (بمناسبة 27 عاماً في تعليم أبناء السودان) مطابع أخبار اليوم (القاهرة) بدون تاريخ ص 4. ومعتصم الحاج : التعليم الأهلي في السودان ص 16.

بمدرسة متوسطة في عام 1951م، أعقبها بأخري ثانوية كانت في عهد الشيخ بابكر بدري في طور الفكرة التي وجدت طريقها للتنفيذ بواسطة ابنه يوسف بابكر بدري في عام 1955م بعد عام واحد من وفاته. وتطورت مؤسسة الأحفاد التعليمية في عام 1966م بإنشاء أول كلية للبنات في السودان لتقديم تعليم فوق الثانوي يعمل علي سد النقص في المنهج التعليمي الخاص بالمرأة ويعتمد علي التركيز علي ما تحتاجه المرأة، خلافاً لما تتلقاه من المناهج التقليدية العامة. وفي عام 1995م وافقت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي على ترفيع كلية الأحفاد إلى جامعة الأحفاد للبنات وصدر قانون بذلك.

المدرسة الأهلية الثانوية (1945م)

طالبت لجنة من كبار رجال أم درمان المستنيرين مدير مصلحة المعارف في حكومة المستعمر بالتصديق بقيام مدرسة أهلية ثانوية بأم درمان. وتم رفض الطلب بحجة عدم توفر المال والمدرسين. وتكفل الشيخ أحمد حسن عبد المنعم أمام مدير مصلحة المعارف بوضع مبلغ يكفي لتسيير المدرسة لأربع سنوات. وعندما أدرك المسؤول البريطاني جدية طالبي تأسيس المدرسة وافق على قيام المدرسة الأهلية الثانوية دون قيد أو شرط. كما تم منح المدرسة قطعة أرض في شمال أم درمان اكتملت مبانيها وبدأت الدراسة فيها في مطلع عام 1945م (بعد 32 عاماً من تأسيس مدرسة الهداية في عام 1912م).

مدرسة المؤتمر الثانوية (1950م)

أنشئت مدرسة المؤتمر الثانوية في عام 1950م (بعد 38 عاماً من تأسيس مدرسة الهداية) كرد فعل لقرار اتخذه مصلحة المعارف بفصل 119 طالباً من مجموع 240 طالباً في مدرسة خور طقت بمديرية كردفان. وكان السبب في الفصل إضراب الطلاب عن الطعام والدراسة احتجاجاً على عدم الاستقرار الدراسي والنقص

في الطعام والصحة العامة. وحينها أصدر مؤتمر الخريجين قرراً بفتح فصول بديلة لتعليم الطلاب المتشردين وتمكينهم من مواصلة دراستهم ابتداء من يوليو 1951م. وقد شكلت هذه الفصول النواة لتأسيس هذه المدرسة بأمر درمان بتضافر جهود أبناء الشعب السوداني. وتم افتتاحها رسمياً في يوم 16 سبتمبر 1951 بعد إعداد كافة المعينات اللازمة للدراسة.

مدرسة المليك الأهلية الوسطى للبنات (1948م)

شهدت نهاية عقد أربعينات القرن العشرين استمرار إهمال حكومة المستعمر بتعليم البنات في المرحلة الوسطى، وتواصل تلكؤها في فتح المزيد من المدارس، الأمر الذي دفع الشيخ أبوبكر المليك لتأسيس مدرسة أهلية وسطى للبنات في عام 1948م لاستيعاب بعض الناجحات ممن لم يجدن فرص القبول في مدرسة أم درمان الحكومية (بعد 36 سنة من تأسيس مدرسة الهداية). وشملت الدفعة الأولى عدداً كبيراً من البنات من بينهن أصغر كريمات الشيخ المليك وبنات أصدقائه ومعارفه. وتكونت لجنة برئاسته لجمع التبرعات ثم الحصول على التصديق من مصلحة المعارف. وافتتحت المدرسة في منزل مستأجر، وبدأت بفصل واحد ضم أربعين تلميذة. وتوسعت المدرسة حتي أصبحت تضم أربعة فصول في عام 1952م حين تخرجت أول دفعة من الطالبات. وفي عام 1950م منحت المدرسة قطعة أرض اكتمل بناؤها في عام 1953م بتبرع من الخيرين.

ولا تعتبر مدرسة المليك مرحلة تحول في تعليم البنات فقط إنما تنبع أهمية المدرسة إلى إنها كانت النواة لنشأة حركة اجتماعية نسائية بدأت بإقامة يوم لأمهات الطالبات وأسواق خيرية نسوية ومعارض في نهاية كل عام دراسي خصص عائدها لدعم المدرسة. ومن نتائج تلك الحركة الاجتماعية النسائية بدأت الدعوة لقيام الاتحاد النسائي الذي قام بدور كبير في التوسع في التعليم ومحو الأمية وتأكيد دور المرأة في شتى مناحي

الحياة. ووصل ذلك الدور قمته بانتزاع المرأة لحقوقها السياسية والمساواة في الوظيفة العامة.
جامعة أم درمان الأهلية (1984م):

بلغ التعليم الأهلي في السودان ذروته في عام 1984م بتبني البروفيسور محمد عمر بشير لفكرة تأسيس جامعة أم درمان الأهلية (بعد 72 سنة من تأسيس مدرسة الهداية كأول مؤسسة تعليمية أهلية في السودان). وشهد منزل الشيخ سيد أحمد سوار الذهب في يوم 1984/2/3م اجتماعاً ضم عدداً من المهتمين بالتعليم في السودان للتفكير حول تأسيس جامع أهلية في مدينة أم درمان. وتوافق المشاركون في الاجتماع على مواصلة الجهود التي بدأها الرعيل الأول في التعليم الأهلي قبل أكثر من سبعين عاماً بتأسيس هذا الصرح التعليمي المنشود - جامعة أم درمان الأهلية. واستلهم المؤسسون لمشروع جامعة أم درمان الأهلية الروح الوطنية العالية والجهد والمثابرة التي بدأ بها الرواد الأوائل، وفي طليعتهم الشيخ الطاهر الشبلي، في مسيرة التعليم الأهلي، حيث كانت نسبة الأمية في السودان تقارب 100%.

وشهد يوم 1986/11/1م تكليل الجهود الذهنية والمادية الصادقة التي بذلت ببدء الدراسة في جامعة أم درمان الأهلية في مقرها المؤقت بمباني مدرسة المليك. وكانت الدفعة الأولى من الطلاب تتكون من 250 طالباً وطالبة موزعين على ستة برامج دراسية. وبعد أربع سنوات من الاجتماع الأول لمناقشة فكرة تأسيس الجامعة، أي في 1988/2/3م، قام السيد أحمد الميرغني رئيس مجلس رأس الدولة بوضع حجر الأساس لمباني الجامعة بمنطقة حمد النيل غرب أم درمان على مساحة 30 فداناً كانت قد منحت للجامعة. وبعد ذلك توالى التبرعات والمساهمات من الخيرين لتشييد القاعات والمعامل والمكاتب اللازمة لتهيئة البيئة المناسبة للدراسة.

مآلات التعليم الأهلي بعد قرن ونيف من تأسيسه بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي

التعليم الأهلي ومجابهة الاستعمار:

استلهم مؤسس التعليم الأهلي في السودان الشيخ الطاهر الشبلي عدداً من الدروس والعبر من نكسة موقعة كرري التي استشهد فيها عدد من أفراد أسرته، حيث تعلم من عدم تكافؤ أسلحة الموقعة أن العلم يغلب شجاعة الشجعان. كما تعلم الفتى الطاهر الشبلي من موقعة كرري ونتيجتها القاسية كراهية المستعمر الغاصب، وولدت في نفسه بذرة الصمود والمقاومة للمستعمر، وكرست فيه رغبة عارمة في الانتقام والقصاص لأهله وذويه من العدو الغاصب.

واستمرت هذه الروح التحررية المصادمة للاستعمار ملازمة لمؤسسات التعليم الأهلي التي أنشئت بعد مدرسة الهداية في عام 1912م. ففي عام 1927م أصدرت المدرسة الإرسالية الأمريكية بأمر درمان قراراً ألزمت فيه التلاميذ المسلمين بحضور دروس الديانة المسيحية أو الانسحاب من المدرسة. وعندها تداعى أعيان مدينة أم درمان لمواجهة هذا المد التبشيري وإيقافه عند حده. وخطب في جمعهم الكبير الشيخ إسماعيل الأزهري مفتي الديار منادياً بترك المدارس الأجنبية وعدم الاعتماد على حكومة المستعمر في تعليم أبنائهم. وكان هذا النداء البداية الفعلية لتأسيس المدرسة الأهلية بأمر درمان في عام 1927م كامتداد للارتباط العضوي بين التعليم الأهلي ونشر ثقافة المقاومة والعصيان ضد المستعمر.

وعليه فقد لعب التعليم الأهلي منذ تأسيسه بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي دوراً بارزاً في مقاومة الاستعمار بالمساهمة الجوهرية في تربية وتعليم أبناء الوطن، وشحذ همتهم بالقيم والمثل المؤدية لإشعال جذوة النضال والمقاومة ضد المستعمر. وقد تجسد ذلك في القيم الوطنية التي غرسها الشيخ الطاهر في تلاميذه بمدرسة الهداية وعلى رأسهم الزعيم إسماعيل الأزهري منذ تأسيسه للمدرسة في عام 1912م. وقد انداح

هذا التيار التنويري الذي قاده الشيخ الطاهر الشبلي بتأسيس مدرسة الهداية في قلب أم درمان بحي السيد المكي العريق، ليعم كافة أرجاء مدينة أم درمان القديمة، فشمّل أحياء الموردة والهاشماب وأبوروف وودنوباوي. وتأسست جمعيات وطنية متعددة تصدى أعضاؤها لنشر العديد من المقالات الهادفة لمقاومة الاستعمار في الصحف والمجلات. وقد ساهم ذلك في تشكيل أولى خلايا المثقفين السودانيين بنادي الخريجين بأم درمان عام 1918م. واتسع نشاط النضالي من نادي الخريجين ليشمل الدعوة لتأسيس المدرسة الاهلية بأم درمان عام 1927م. وعندما دعا طلاب كلية غردون لإضرابهم الشهير في عام 1931م بسبب قرار حكومة المستعمر تخفيض مرتبات الخريجين إبان الأزمة الاقتصادية العالمية، شد من أزرهم الخريجون فكان إضراباً هز مفاسل الاستعمار. وتواصل هذا المد النضالي القوي حتى انعقاد أول اجتماع للخريجين في فبراير 1938م، حيث تم انتخاب الزعيم إسماعيل الأزهري، تلميذ الشيخ الطاهر الشبلي كأول رئيس للجنة التنفيذية للخريجين.

وألقي الزعيم الأزهري، رئيس النادي ورئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر، خطاباً حدد فيه الهدف من إنشاء المؤتمر ليلعب دوراً بارزاً في حياة السودانيين وتطلعاتهم المشروعة لنيل العزة والكرامة والانعقاد من الاستعمار. وقال الأزهري: «إن المؤتمر هو لسان الخريجين المعبر عن رغباتهم الموضح لشكاياتهم العامل لتحقيق الأماني القومية». ثم انبرى قائلاً: «ما لنا نتضاءل في بلدنا ونتخاذل في حقنا، وقد تعهدنا الحكم الثنائي ما يقارب الأربعين عاماً. أما أن نقف على أرجلنا، أما أن لنا أن نثبت وجودنا ونعزز بسودانيتنا، ولنعمل في صف واحد متآزرين ليس كخريجين فقط بل مع الآباء ورؤساء العشائر والزعماء، وقد تعددت طرق الوصول، إلا أن الهدف واحد نعمل جميعاً على تحقيقه».

ونظراً لما أبرزه الزعيم الأزهري من سمات قيادية متفردة، تم انتخابه كأول رئيس لمؤتمر الخريجين لدورة كاملة في عام 1941م، حيث أن كانت الرئاسة قبلها تتداول بين أعضاء اللجنة التنفيذية بمعدل شهر واحد لكل منهم. ثم شارك الأزهري في صياغة

مذكرة مؤتمر الخريجين في أبريل 1942م التي طالبت بحق تقرير المصير للسودان والسودانيين. وبعد ذلك توالى انتخابه رئيساً للمؤتمر لعدة دورات حتى اختير رئيساً لحزب الأشقاء عام 1944م. ثم قاد وفد السودان الممثل لجميع الأحزاب إلى مصر عام 1946م لعرض وجهة النظر السودانية. وعندما توحدت الأحزاب الاتحادية اختير الأزهري رئيساً للحزب الوطني الاتحادي عام 1952م، وقاد هذا الحزب للفوز بأغلبية مقاعد البرلمان في الانتخابات النيابية الأولى عام 1953م، حيث انتخب رئيساً لأول حكومة وطنية في عام 1954م. وكان على رأس مهامه الوطنية إنجاز مهام الاستقلال المتمثلة في سودنة الوظائف وجلاء القوات الأجنبية. وتواصل دوره النضالي البارز بإعلانه الاستقلال من داخل البرلمان في 19 ديسمبر 1955م، ورفع علم السودان ايزاناً بمولد جمهورية السودان في أول يناير 1956م.

وعليه فقد مثل التعليم الأهلي بشقيه التربوي والتعليمي مصدراً أساسياً لرفد السودان بقيادة أفاض ساهموا مساهمة بارزة في تحقيق التحرر السياسي من الاستعمار ووضع اللبنة الأولى لدولة السودان الحديثة. وقد لعب التعليم الأهلي دوراً كبيراً في صناعة هؤلاء القادة وتكوين شخصيتهم الإنسانية بجميع مكوناتها الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية لتحقيق التحرر المنشود. وإلى جانب ذلك الأثر التربوي، فقد ساهم التعليم الأهلي في اكساب أبناء الوطن معارف حديثة وتعلم مهارات جديدة تمكنهم من مواجهة متطلبات تأسيس الدولة المستقلة القائمة على السودنة الشاملة.

التعليم الأهلي ومواجهة العولمة:

شهد منتصف تسعينيات القرن العشرين متغيرات كونية جوهرية وعميقة في العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية عرفت بالعولمة. ويستخدم مفهوم العولمة لوصف كل العمليات التي تكتسب بها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية قدراً من الاندماج بحيث تتلاشي المسافة بين الدول ويتحول العالم إلى كيان منكمش ومندمج بفعل التطور الهائل في مجالات الاتصالات والمعلومات والتقدم

التقني الذي انطلق في الدول المتقدمة. ومن ثم فقد استغلت هذه الدول المتقدمة ظاهرة العولمة للهيمنة الثقافية والفكرية على الدول النامية. ونتج عن ذلك أن الدول النامية وجدت نفسها أمام مواجهة ثقافية إقصائية تهدد موروثاتها الثقافية مما يقتضي من هذه الدول مواجهة العولمة بالعلم النافع الذي يمكن من الاستفادة من الفرص التي تتيحها العولمة، ويساعد على بناء جدار حصين للدفاع عن موروثاتها الحضارية وحمايتها من الاندثار. ولعل أبرز مكونات الدرع الواقى من الآثار السلبية للعولمة بالنسبة للدول النامية، ومن بينها السودان، هو التعليم، بما في ذلك التعليم الأهلي. حيث أن التعليم الأهلي في السودان أصبح في ظل العولمة عرضة لجملة من المهددات والتحديات التي تخصم من مردوده الاقتصادي والاجتماعي والحضاري.

ولعل من أهم هذه التحديات التي تواجه التعليم الأهلي في السودان هو التحدي الاقتصادي، حيث أن العولمة خلقت كيانات وتكتلات اقتصادية هائلة كالاتحاد الأوروبي، واتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية، وما صاحب ذلك من إنشاء منظمة التجارة العالمية التي انحازت للدول المتقدمة بمنع القيود على التجارة الدولية. ونتج عن ذلك إضعاف القدرة التنافسية للمصادر السودانية في الأسواق العالمية وفتح السوق السوداني للمنتجات العالمية مما أثر سلباً على الإنتاج المحلي. وقد أفضى ذلك إلى بروز تحد كبير أمام التعليم الأهلي في السودان لتبني مناهج دراسية مبتكرة توائم متطلبات العصر بحيث تصبح المناهج الدراسية وسيلة لتكوين كفاءات ومهارات علمية تمتلك روح المبادرة والإبداع، وتحترم قيمة العمل والإنتاج الذي يتمتع بالميزة النسبية والتنافسية على مستوى العالم. ومن هذا المنطلق يجب أن يرمي النظام التعليمي إلى تخريج منتجين للعمل بدلاً عن تخريج طالين للعمل.

ومن ناحية أخرى، فإن التعليم الأهلي في السودان يواجه بتحد آخر جراء العولمة وهو الثورة المعلوماتية المتسارعة وما صاحبها من استخدام أجهزة إلكترونية متطورة وانسياب معلومات هائلة ساعدت على تكريس هيمنة الدول المتقدمة على الدول النامية ومن بينها السودان. ولهذا أصبح لزاماً سعي السودان لكسر طوق هيمنة الدول المتقدمة

عن طريق الاهتمام بالإعداد التربوي والتعليمي العصري لأبنائه وتنمية قدراتهم الفكرية والإبداعية. ويتطلب ذلك إعادة النظر في النهج التعليمي والمناهج الدراسية والأساليب التربوية والتعليمية بحيث تؤدي للتفاعل الإيجابي مع التحديات العلمية المصاحبة للعولمة.

وتشمل التحديات المصاحبة للعولمة التي تواجه التعليم الأهلي في السودان أيضاً التحدي الصحي والبيئي. ذلك أن النمط الإنتاجي الصناعي والزراعي الذي أفرزته العولمة قد أفرز زيادة كبيرة في انبعاث الغازات الضارة وتكدس النفايات في ظل سوء التخلص منها. وصاحب ذلك انتشار ظاهرة الجفاف والتصحر الناتجة عن التغير المناخي. وقد حتم ذلك ضرورة التوعية بالمحافظة على النظام البيئي بتضمين الأبعاد البيئية في مناهج التربية والتعليم بما يمكن من نشر الوعي وتنمية القدرات. أما بالنسبة للتحديات الصحية فينبغي أن يضطلع التعليم الأهلي بدوره في تبني برامج تعليمية وتربوية صحية ترمي للمحافظة على صحة الأسرة.

وثمة تحدٍ كبير آخر يواجه التعليم الأهلي في السودان في عصر العولمة ألا وهو التحدي الثقافي والاجتماعي - ذلك أن تحقيق مكاسب العولمة بالنسبة للدول المتقدمة يمر عبر تغيير القيم والعلاقات الاجتماعية والحياة الثقافية في الدول النامية باستغلال ثورة المعلومات والاتصالات بحيث يصعب على الدول النامية منع التأثير الثقافي الإقصائي الوافد من الدول المتقدمة. وقد نتج عن ذلك تغير سالب واضح في منظومة القيم في السودان نتيجة للتأثر المتزايد بالقيم السلبية الوافدة بالقدر الذي أصبح مهدداً للهوية والموروث الثقافي. وعليه ينبغي للتعليم الأهلي أن ينبري لحماية الهوية بالاهتمام بالموروثات الثقافية لما لها من دور محوري في صناعة المجتمع. وعليه أصبح لازماً على التعليم الأهلي استلهام الدور الثقافي البارز الذي لعبه رواده الأوائل بكفاءة واقتدار في مجابهة المد الثقافي الاستعماري في مطلع القرن العشرين. ومن ثم ينبغي للتعليم الأهلي غرس الوعي لدى الطلاب بما يمكنهم من التحليل الناقد للثقافات الوافدة بحيث يستقبل ما هو إيجابي ويتحصن بموروثاته الثقافية ضد كل ما هو سلبي.

وتتضمن التحديات التي تواجه التعليم الأهلي في عصر العولمة ضرورة الاهتمام بشمولية المعرفة بحيث يتم التركيز على أن مضامين ومفاهيم المعارف الإنسانية المعاصرة يجب أن تضع في الاعتبار التربية الروحية والأخلاقية والاجتماعية والتقنية، إلى جانب الاهتمام بتجويد اللغة العربية واللغات الأجنبية الأساسية مثل الإنجليزية والفرنسية. ويستوجب الشمول المعرفي التركيز على تبني نظام معرفي ومناهج علمية تؤدي للنضوج العلمي الضروري لمعالجة متطلبات العصر. كما ينطوي الشمول المعرفي على الاهتمام بتنمية مهارات هضم المعرفة العلمية بغرض التمكن من تأملها وتوظيفها بغرض الابتكار والإبداع. ويعني ذلك الابتعاد عن الأساليب التقليدية المتمثلة في التلقين والحفظ لمجرد النجاح في الامتحان.

ولعل من أهم التحديات التي تواجه التعليم الأهلي في السودان في عصر العولمة هو صعوبة تحقيق الأهداف المأمولة في ظل ارتفاع تكاليف العملية التعليمية والتربوية، مما يتعذر معه القيام بدوره في توفير تعليم عصري بتكلفة زهيدة تناسب كافة مكونات المجتمع، ولا سيما الشرائح الضعيفة. ونظراً لعدم إمكانية فرض رسوم دراسية عالية كالتي تفرض في التعليم الخاص، أصبح من الضروري الحصول على دعم مناسب من الحكومة في إطار شراكة استراتيجية تراعي خصوصية الدور الذي يقوم به التعليم الأهلي في توفير الجودة المطلوبة في التعليم الذي يسهل تناوله من عامة مكونات المجتمع السوداني. ولعله من الضروري التأكيد على أن هذا الدعم الحكومي ينبغي ألا يصحبه هيمنة الدولة على التعليم الأهلي من حيث التأثير على مرونة حركته ومقدرته على الابتكار والإبداع في مجال المناهج وأساليب التربية المبتكرة.

التعليم الأهلي بين تحديات التأميم والخصخصة

أفرزت العولمة واقعاً اقتصادياً يركز على الانفتاح وتحرير الأسواق، مما أثر جوهرياً على دور الدولة في القطاعات الإنتاجية والخدمية. ويذكر أن هناك تبايناً بين المفاهيم المستخدمة في

تعريف السوق، حيث تتبع الولايات المتحدة الأمريكية تعريفاً هو الأقرب للسوق الحر. أما العديد من الدول الأوروبية فقد اتبعت نظام دولة الرفاه الذي تضطلع فيه الحكومة بدور كبير في الاقتصاد من خلال تحديد الحد الأدنى للأجور وتقديم الدعم لبعض الخدمات الاجتماعية في قطاعي التعليم والصحة. أما في دول النظام الاشتراكي فإن الدولة تتحكم في آليات العرض والطلب والإنتاج والأجور وأسعار السلع والخدمات.

ويذكر أن فترة سبعينات وثمانينات القرن العشرين شهدت ضغطاً شديداً من مؤسسات التمويل الدولية على الدول النامية، بما فيها السودان، للجوء الكامل لآلية السوق من خلال برامج التكيف الهيكلي. ولكن نظراً لتردي الأوضاع الاجتماعية المصاحب لتنفيذ هذه البرامج، طلبت هذه المؤسسات من الحكومات التدخل لمعالجة الفشل في آلية السوق المطلقة سيما في ضوء حركات الاحتجاج الاجتماعي في الدول التي طبقت برامج التكيف الهيكلي. ذلك أن هذه البرامج قد انطوت على خفض الصرف الحكومي على الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم، وخصخصة العديد من المرافق الصحية والتعليمية، وما صاحبه من فرض رسوم باهظة أثقلت كاهل الفقراء.

واعتباراً من مطلع تسعينات القرن العشرين شهد السودان نزعة متنامية نحو تحرير الاقتصاد صاحبها انخفاض متواصل في الصرف الحكومي على الخدمات الاجتماعية خاصة التعليم. كما شهدت هذه الفترة بداية تطبيق الحكم اللامركزي في البلاد الذي انطوى على تحويل الصرف على التعليم قبل الجامعي للولايات التي ظلت تعاني من شح الموارد الذاتية لتمويل الصرف الضروري على الخدمات التعليمية. وقد أدى ذلك إلى فقدان التعليم الحكومي الميزة النسبية التي كان يتمتع بها منذ فجر الاستقلال. وقد فتح ذلك الباب واسعاً لاستثمارات القطاع الخاص في مجال التعليم. وعلى الرغم من الدور الإيجابي الكبير الذي لعبه القطاع الخاص في سد الفراغ الذي خلفه تراجع مستوى جودة التعليم العام، إلا أن الفائدة من التعليم الخاص في كثير من الحالات محصورة في فئة محدودة من ذوي الإمكانيات المادية الكبيرة في العاصمة الخرطوم. وعليه فقد أدت التكلفة العالية للتعليم الخاص إلى حرمان الغالبية العظمى من محدودي الدخل في

العاصمة والولايات من الاستفادة من استثمارات القطاع الخاص في قطاع التعليم. وقد أدت هيمنة القطاع الخاص على قطاع التعليم إلى تدمير واسع النطاق في أوساط عامة المواطنين، مما أدى بالسلطات التعليمية الحكومية إلى إنشاء ما يعرف بالمدارس النموذجية في عام 1994م ليقبل فيها الطلاب المتفوقون في محاولة لاسترداد ما فقدته التعليم العام من سمعة ومكانة استحوذ عليها التعليم الخاص. وحظيت هذه المدارس النموذجية باهتمام كبير من الحكومة تمثل في الصرف الزائد على المعلمين والمباني، مقارنة بالمدارس الجغرافية التي تواصل فيها الإهمال والتدهور. وقد نتج عن هذه السياسة التعليمية تقسيم المدارس الحكومية إلى فئتين: فئة نموذجية، تتركز غالباً في العاصمة، تضم صفوف المعلمين والتلاميذ، وفئة جغرافية تؤوي عامة المدرسين والتلاميذ. وحتى تواصل السلطات تحميل المواطنين تمويل التعليم النموذجي أخذت في التوسع في قبول التلاميذ غير المتفوقين في المدارس النموذجية نظير رسوم أعلى، مما أدى إلى اكتظاظ الفصول وأثر سلباً على المخرجات التعليمية والتربوية. ومن ناحية أخرى، لم تشهد أساليب التعليم في المدارس النموذجية أي جهد يذكر لتفجير الطاقات الذهنية التي يتمتع بها التلاميذ المتفوقون المقبولون فيها باتباع أساليب علمية مبتكرة تطور مقدراتهم بالأنشطة الصفية واللاصفية المتطورة.

وعلى العكس من ذلك اعتمدت منهجية التعليم في المدارس النموذجية التي تضم أكثر التلاميذ تفوقاً على تلقين المعلومة بواسطة المعلم والكتاب، ثم حفظها وتخزينها، ثم استذكارها وقت الامتحان فقط لأجل الحصول على درجات عالية تنافس تلاميذ مدارس القطاع الخاص. ولا يوجد في المدارس النموذجية إلى ما يشير إلى اتباع منهجية تعتمد على تعليم مهارات التلاميذ في التفكير في المعلومة وتحليلها وتفسيرها. ومن ثم فإن التعليم النموذجي قد أدى لتجميع الطلاب المتفوقين في مدارس محدودة خالية من المعينات التعليمية والتربوية العصرية وزج بهم في التعليم التلقيني الذي جمّد طاقاتهم وأضاع أخصب سنوات أعمارهم في التريديد والحفظ والامتثال، دون أن يزودوا بالتفكير الناقد والقدرة على البحث والاستقصاء مما يعيق تفجير طاقاتهم العقلية والمهنية.

وعليه فقد شهد العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين تضيقاً مزدوجاً على التعليم الأهلي المتعارف عليه تاريخياً بالجودة العالية في مخرجاته التربوية والتعليمية بتكاليف قليلة في متناول عامة المواطنين. وقد تمثل هذا التضيق على التعليم الأهلي من ناحية في انتشار المفهوم الاستثماري الربحي الذي طغى على العملية التعليمية خلال الفترة المذكورة. وقد أدى ذلك إلى فقدان التعليم الأهلي لقدر كبير من موارده التمويلية لمصلحة المستثمرين الخواص الذين يستهدفون الفئة المسورة من المواطنين لتحقيق أكبر قدر من الأرباح. ومن ناحية أخرى، أخذ التعليم الأهلي يعاني من منافسة السلطات التعليمية الإقصائية التي تمثلت في الانتشار غير المرشد للمدارس النموذجية المحتكرة بواسطة الحكومة. وقد أدى ذلك إلى فقدان البلاد للتعليم الأهلي المتميز قليل التكاليف الذي رقد البلاد بنفر من خيرة أبنائه شمل عطاؤهم الثر تحقيق التحرر الوطني للبلاد والمشاركة الفاعلة في قيادة جهود البناء والنماء. وعليه فقد أدت التطورات في السياسة التعليمية المصاحبة للعمولة وتحرير الاقتصاد إلى زج التعليم الأهلي في السودان بين مطرقة التأميم وسندان الخصخصة.

وتنتج عن تلك التطورات السالبة في قطاع التعليم تراجع الدور التربوي والتعليمي والوطني الكبير الذي كان يقوم به التعليم الأهلي منذ عهد الاستعمار. وحل محله تعليم حكومي مترهل غلب فيه الكم على النوع، وتعليم خاص أثقل كاهل المواطنين بالرسوم العالية والدروس الخصوصية التي تغلب فيها التربح على العلم. كما فقدت البلاد من تراجع التعليم الأهلي القيم المضيئة المتمثلة في حب الوطن والأسرة التي ظل يغرسها التعليم الأهلي في الطلاب. ولعل من أكبر المعوقات التي واجهت التعليم الأهلي خلال العقدين الماضيين إيكال إدارته للسلطات المحلية التي تعتبره مصدراً للجبابة والرسوم، حيث لا تفرق في هذا الصدد بينه وبين التعليم الخاص الذي يفرض رسوماً عالية على الطلاب. ومن ناحية أخرى فإن السياسة التعليمية خلال العقدين الماضيين قد أفرزت تنافساً مشوهاً بين المدارس الحكومية النموذجية ومدارس القطاع الخاص حَصَرَ الفئتين في مجرد تعليم الطلاب «القراءة والكتابة والحساب». في حين أن التعليم الأهلي يتجاوز هذه

المبادئ التقليدية للتعليم بتركيزه أيضاً على «الحذق والمسؤولية والاحترام». وكان من نتائج غياب هذه المبادئ التعليمية السامية التي اتسم بها التعليم الأهلي التدري الفاضح في السلوك العام للطلاب في الشارع السوداني مقارنة بالفترة التي ازدهر فيها التعليم الأهلي منذ تأسيسه بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي في عام 1912م.

ويمكن تلخيص مدى مأصـاب التعليم من تراجع فيما يلي:

• اتباع أسلوب التلقين من جانب المعلم، وأسلوب الحفظ والاستظهار من جانب التلميذ.

• تدني الوضع الاجتماعي والمادي للمعلم.

• تردي الكفاءة الداخلية للتعليم بما يعني عدم الوصول إلى الاستيعاب الكامل وارتفاع معدلات التسرب وانخفاض مستوى التلاميذ الناجحين.

• اكتظاظ الفصول الدراسية بالتلاميذ حتى في المدارس النموذجية، وغياب التجهيزات والمستلزمات التعليمية الأساسية.

• غياب الأنشطة والمعارف اللاصفية مثل الجمعيات الأدبية والموسيقى والمسرح والفنون الجميلة.

• ارتفاع نسبة التلاميذ الملتحقين بالمساق الأدبي على حساب المساق العلمي.

• عدم توفر المرافق التعليمية من معامل ومكتبات وأماكن لممارسه الأنشطة التربوية.

• انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية باهظة التكاليف.

• تجلي الخلل بين مخرجات التعليم العام ومتطلبات التعليم العالي واحتياجات التوظيف.

• عدم ملائمة مخرجات التعليم لاحتياجات سوق العمل والنشاط الاقتصادي

لتفشي الندرة في بعض المجالات المهنية وانتشار البطالة في مجالات أخرى.

التعليم الأهلي وتنظيمات المجتمع المدني

أعادت العولة تسليط الضوء على مصطلح المجتمع المدني باعتباره القطاع

الثالث من قطاعات المجتمع بجانب الحكومة والقطاع الخاص. ويتضمن المجتمع المدني كافة الأنشطة التطوعية التي تنظمها جماعات تجمعهم مصالح وقيم وأهداف مشتركة. وتشمل هذه الأنشطة تقديم الخدمات ودعم التعليم المستقل، والتأثير على السياسات العامة بممارسة الضغوط ضد السالب منها أو تعزيز الإيجابي فيها. ويضم المجتمع المدني مجموعة واسعة النطاق من المنظمات غير الحكومية والمنظمات غير الربحية التي تنهض بعبء التعبير عن اهتمامات وقيم الآخرين، استناداً إلى اعتبارات أخلاقية أو ثقافية أو سياسية أو علمية أو دينية أو خيرية. وتشمل هذه التنظيمات المنظمات غير الحكومية، والنقابات المهنية والعمالية، والمنظمات الخيرية، والمنظمات الدينية، ومؤسسات العمل الخيري، والأندية الرياضية، وجمعيات حقوق الإنسان وجماعات الرفق بالحيوان. وتجمع بين مختلف تنظيمات المجتمع المدني ميزة مشتركة تتمثل في استقلالها عن الحكومة والقطاع الخاص. ولعل هذا الطابع الاستقلالي هو ما يسمح لهذه التنظيمات بالعمل المؤثر والاضطلاع بدور مهم في المجتمعات الديمقراطية. وتهتم تنظيمات المجتمع المدني بالمصالح العليا للمجتمع الذي تعمل فيه، وتبدي استعداداً مستمراً للتطوع بالزود عن تلك المصالح وحمايتها من تغول السلطة وأطماع القطاع الخاص. وتشير الشواهد إلى أن المجتمع المدني ينمو بمقدار استعداد أفراده على العطاء بدون مقابل لإفادة الجماعة في إطار سلوكٍ راقٍ يركز على تعظيم قيمة الإيثار العام.

ويمثل دور تنظيمات المجتمع المدني في تطوير التعليم إحدى المجالات الأكثر تأثيراً في بناء الأمم المتحضرة. ويعضد ذلك التخلي التدريجي للدولة في مجال التعليم عن بعض الأدوار التقليدية في توفير الحماية الكاملة والرعاية للفئات الضعيفة. وبالتالي ظهرت الحاجة إلى منظمات المجتمع المدني لسد الفراغ الذي تركته الدولة. وأخذت أنشطة هذه المنظمات في التطور الملحوظ من أعمال البر والإحسان لتشمل كافة مجالات

العمل العام مثل الدفاع عن حقوق الإنسان والدفاع عن حقوق المستهلك وحماية البيئة، والدفاع عن حقوق النساء. وبالرغم من المكاسب المجتمعية البارزة التي حققتها منظمات المجتمع المدني خلال العقدين الماضيين، إلا أن دورها في تعزيز وتطوير العملية التعليمية والتربوية لم يكن بنفس مستوى الإنجاز. وحتى تستكمل الأدوار الإيجابية التي تقوم بها منظمات المجتمع المدني في التحول الاقتصادي والاجتماعي ينبغي أن تلعب دوراً نشطاً في تطوير التعليم في إطار إستراتيجية مدروسة تستوعب الاحتياجات التعليمية والتربوية المجتمعية في ضوء الإخفاقات التي اعترت دوري القطاع الحكومي والقطاع الخاص.

ولعل أبرز دور يمكن أن تقوم به منظمات المجتمع المدني في هذا الصدد هو تقديم الدعم والمساندة لتأسيس مؤسسات تعليمية أهلية تستعيد الإرث القديم والدور الريادي الذي قام به التعليم الأهلي في وضع اللبنة الأولى للتححر السياسي وقيام الدولة الحديثة. ويشمل ذلك الدور المشاركة الفاعلة في تعبئة الموارد المادية والبشرية التي تمكن هذه المؤسسات التعليمية والتربوية الأهلية من الصمود في غياب الدعم الحكومي والخاص. وحتى تضطلع منظمات المجتمع المدني بدورها المهم في استعادة مكانة التعليم الأهلي ينبغي مشاركتها في عضوية مجالس أمناء هذه المؤسسات (المدارس) التعليمية الأهلية واشراكها الفاعل في الإشراف على هذه المدارس والمساهمة في إدارتها باعتبارها مملوكة للمجتمع وليس للدولة ولا للقطاع الخاص. كما يمكن لمنظمات المجتمع المدني المساهمة الفاعلة ببناء الوعي بالدور الريادي للتعليم الأهلي لكافة المهتمين والمستفيدين من خدماته التعليمية الميسورة. وبالتالي تساهم في توفير المواقع والمباني التي تؤوي هذه المدارس.

ومن ناحية أخرى يمكن لتنظيمات المجتمع المدني في السودان التعويل على القبول المستحق على الصعد المحلية والإقليمية والعالمية لتكوين شبكات تضم الجمعيات الأهلية والمؤسسات الحكومية والمراكز الأكاديمية والمهتمين بالتعليم ورجال الأعمال ذوي المساهمات المشهوددة في دعم التعليم الأهلي. وحتى يسترد التعليم

الأهلي دوره التاريخي في تحقيق التحرر الوطني والبناء والنماء، ينبغي أن تعمل هذه المنظمات في همة ونشاط من أجل إعادة بنائه وتطويره. ولعل من أبرز المنظمات العالمية التي يمكن أن تساعد في بلوغ هذه الغاية المنشودة الحملة العالمية للتعليم (Global Campaign for Education, GCE).

الحملة العالمية للتعليم:

تعرف الحملة العالمية للتعليم (GCE) بأنها حركة مجتمع مدني تسعى لإنهاء أزمة التعليم في العالم. وتتمثل رسالتها في التأكد من قيام الدول بضمان حصول كل فرد على حقه بالتعليم العام النوعي والمجاني. وينبثق هذا الدور المهم الذي تضطلع به هذه الحملة من المادة 26 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، 1948 التي تنص على: «لكل شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأولي إلزامياً»¹.

وفي عام 1990، تبنت 150 حكومة الإعلان العالمي حول التعليم للجميع لتعزيز الجهود الرامية إلى تقديم الحق في التعليم. وبعد مضي عشر سنوات، أكد المنتدى العالمي للتعليم في داكار، السنغال، على هذا الالتزام واعتمد الأهداف الست للتعليم للجميع ليتم تحقيقها حتى عام 2015:

الهدف الأول : توسيع وتحسين الرعاية والتربية على نحو شامل في مرحلة الطفولة المبكرة، وخاصة لصالح أكثر الأطفال تأثراً وأشدّهم حرماناً.

الهدف الثاني : العمل على أن يتم بحلول عام 2015م تمكين جميع الأطفال من الحصول على تعليم ابتدائي جيد ومجاني وإلزامي، وإكمال هذا التعليم مع التركيز بوجه خاص على البنات والأطفال الذين يعيشون في ظروف صعبة وأطفال الأقليات الإثنية.

الهدف الثالث : ضمان تلبية حاجات التعلم لكافة الصغار والراشدين من خلال الانتفاع

¹ <http://www.campaignforeducation.org/ar/about-us/about-education-for-all>.

المتكافئ ببرامج ملائمة للتعلّم واكتساب المهارات اللازمة للحياة.

الهدف الرابع : تحقيق تحسين بنسبة 50 في المائة في مستويات محو أمية الكبار بحلول عام 2015م، ولاسيما لصالح النساء، وتحقيق تكافؤ فرص التعليم الأساسي والتعليم المستمر لجميع الكبار.

الهدف الخامس : إزالة أوجه التفاوت بين الجنسين في مجال التعليم الابتدائي والثانوي بحلول عام 2005، وتحقيق المساواة بين الجنسين في ميدان التعليم بحلول عام 2015، مع التركيز على تأمين فرص كاملة ومتكافئة للفتيات للانتفاع والتحصيل الدراسي في التعليم الأساسي الجيد.

الهدف السادس : تحسين كافة الجوانب النوعية للتعليم وضمان الامتياز للجميع بحيث يحقق جميع الدارسين نتائج واضحة وملموسة في التعلّم، ولاسيما في القراءة والكتابة والحساب والمهارات الأساسية للحياة.

وقد وقعت 180 دولة لتحقيق هذه الأهداف، والالتزام بوضع الأطر القانونية والسياسات والتمويل حتى يتسنى للجميع، بغض النظر عن ظروفهم، من الحصول على التعليم - وأن يكون التعليم متاحاً، وسهل الوصول إليه ومقبولاً وقابلاً للتكيف. وتعهدت الدول الغنية للمساعدة في جعل التعليم للجميع حقيقة واقعية من خلال الالتزام بمبادئ التعاون الدولي تجاه تلك البلدان ذات الموارد المالية الأقل.

كما انعكس التزام تجاه الحق في التعليم في أهداف الأمم المتحدة الإنمائية للألفية، والتي حددت عام 2000 وبموعد نهائي لتحقيقها بحلول عام 5201. وهناك ثمانية أهداف إنمائية للألفية، اثنان منها تركزت على التعليم:

• ضمان إتمام جميع الفتيان والفتيات مرحلة التعليم الابتدائي بحلول عام 2015م.

• القضاء على أوجه التفاوت بين الجنسين في التعليم الابتدائي بحلول عام 2005م وعلى جميع المستويات بحلول عام 2015م.

وتتضمن الحملة العالمية للتعليم في عضويتها أكثر من 120 تحالفا وطنياً ومنظمة دولية وإقليمية تدافع جميعها عن التعليم العام النوعي للجميع. وينتشر أعضاء الحملة العالمية للتعليم في ما يقرب من 100 بلد حول العالم. وبوصفها هيئة عالمية، فهي تقوم بتمثيل حملات وآراء أعضائها في المنابر الدولية، علماً بأن نموذج الحملة يتركز وبصورة مكثفة على الدعوة والتعبئة الوطنية والمحلية، وتهدف الحملات إلى تحقيق التغيير في مختلف القطاعات التعليمية المحلية والوطنية، بما في ذلك قضايا الفساد المحلية التي تقوض توفير الميزانيات للمدارس أو تغييرات السياسة الوطنية نحو حق توفير التعليم العام والنوعي لكل فرد. وتتضمن عضوية الحملة تحالفات وطنية وشبكة من المنظمات الإقليمية أو الدولية التي تسعى لتحقيق أهداف موحدة، أو المنظمات الدولية والهيئات التمثيلية العاملة عبر عدة بلدان. وتتوزع الدول الأعضاء في كل من أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط. وذلك فضلاً عن الهيئات الدولية والإقليمية. وتعمل الدول الإفريقية من خلال حملة شبكة أفريقيا لتوفير التعليم للجميع

(ANCEFA) Africa Network Campaign for Education for All).

وتتمتع الدول الأعضاء في هذه الحملة بالعديد من المزايا التي تشمل العمل كجزءٍ من حركة دولية حقيقية لديها أعضاء في 96 بلداً. كما تتيح حرية الوصول والتواصل ضمن شبكة من المنظمات ذات الاعتقاد الراسخ في ضرورة حصول الجميع على التعليم. كما تمكن هذه الحملة من التواصل المثمر مع المحترفين العاملين على تحقيق هذه الأهداف المأمولة، وتتيح فرص تبادل المعارف لتطوير المهارات، وزيادة تأثير الجهود الموجهة نحو إتاحة التعليم للجميع. ومن ناحية أخرى بمقدور المنظمات ذات العضوية الكاملة والتحالفات المشاركة في الجمعية العالمية للحملة العالمية للتعليم، التصويت لصالح المواقف السياسية المستقبلية للحملة العالمية للتعليم، والترشح لخوض انتخابات الهياكل الإدارية للحملة العالمية للتعليم، واستخدام شعار الحملة العالمية للتعليم على المواد، ويحق لهم تقديم طلبات للحصول على التمويل لأسبوع العمل العالمي وغيره من أنشطة الدعوة.

وتعمل الحملة العالمية للتعليم لتعزيز صوت المجتمع المدني في تطوير التعليم الوطني .
من خلال تعبئة الموارد، والتعلم المشترك وبرامج مثل المجتمع المدني للتعليم
(Civil Society Education Fund CSEF) . ويقوم نشاط الحملة
بحث الحكومات الوطنية على ضمان توفير التعليم للجميع، خاصة في البلدان ذات
الحاجة الماسة، مثل السودان.

وعلى الرغم من أن الحكومة يجب أن تتحمل المسؤولية الرئيسية عن ضمان
حصول المواطنين على التعليم الأساسي والنوعي، فهناك ضرورة ملحة لعمل طائفة
واسعة من الجهات الفاعلة داخل السودان لبذل الجهود الرامية لتوفير التعليم. وتمثل
تنظيمات المجتمع المدني أحد هؤلاء الشركاء الذين يمكنهم لعب دور حاسم من خلال
توحيد الأصوات معاً ضمن منبر موحد للدفاع عن قضية توفير التعليم للجميع .

وتؤمن الحملة العالمية للتعليم بأن مساهمة المجتمع المدني وعلى نطاق واسع ومنسق
لا تقدر بثمن لتحسين التعليم. وبناءً على هذا المبدأ، تعمل الحملة العالمية للتعليم على
الجمع بين الأطراف المعنية بالمنظمات غير الحكومية واتحادات المعلمين ومجموعات
الآباء ومنظمات المجتمع المحلي، لتتكاتف معاً كتحالفات وطنية للتعليم. وتعمل بمثابة
أصوات وطنية تمثل المجتمع المدني في المحافل السياسية.

وبمقدور هذه التحالفات الوطنية للتعليم توفير المعرفة الأولية والأدلة والإسهام
في التخطيط في قطاع التعليم، وتنفيذ سياسات الرقابة والإشراف على الممارسات على
المستوى المحلي، والتشجيع على زيادة الإنفاق على التعليم، وضمان الإنفاق الرشيد
لميزانيات التعليم ووصول المبالغ المالية إلى الأهداف المقصودة. وبمقدور التحالفات ضمان
إعطاء الأولوية للتعليم للجميع، بما في ذلك من تم إقصاؤهم أو ممن تعرضوا للتمييز،
وبمقدورها أيضاً زيادة مستوى الوعي حول التعليم كحق من حقوق الإنسان، وتمكين
المواطنين من مطالبة الحكومة بحقوقها المشروعة حسب القانون.

وقاية دور تنظيمات المجتمع المدني في التعليم من هيمنة الحكومة والعولمة:

كما سبقت الإشارة إليه، فإن تسيير الأمور في الدولة الحديثة يتم بواسطة ثلاث منظومات إدارية تشمل القطاع العام الحكومي الذي يضطلع بحفظ النظام في إطار الدستور الذي يحدد علاقات مكونات المجتمع ويقوم بتمويل الصرف الحكومي. كما يوجد أيضاً القطاع الخاص، الذي يضطلع بالعديد من الأنشطة التي تخدم المجتمع بدافع الربح. أما المنظومة الثالثة فيمثلها المجتمع المدني الذي يضطلع بخدمة المجتمع دون هدف بتحقيق الربح، بل تدفعه قيم وأفكار الإيثار العام. فالمجتمع المدني بهذا المفهوم يمثل أحد أضلاع مثلث الدولة، ولكنه ليس جزءاً من الحكومة. وعليه فإن تغول الحكومة على عمل المجتمع المدني وتحويله لأداة للسيطرة والهيمنة يوحى بخلل في حوكمة الدولة يجعلها أقرب لدولة التسلط والاستبداد منها لدولة الديمقراطية والحرية. وفي المقابل فإن استغلال تنظيمات المجتمع المدني في قطاع التعليم بواسطة قوى العولمة كأداة لتحقيق برامجها ومصالحها عبر اختراق المجتمعات، يمثل هو الآخر انحراف عن مسار الدولة المستقلة المرتكزة على الحرية والعدالة. ذلك أن الضغط الذي تمارسه قوى العولمة للهيمنة على مكونات المجتمع المدني العاملة في قطاع التعليم يحرمها من العمل الحر الذي يفسح المجال لتفريخ قيادات وطنية مستقلة تغلب مصلحة الوطن على مصلحة الأجنبي. وترمي قوى العولمة إلى استغلال المجتمع المدني في الدول النامية لتحقيق أهداف العولمة السياسية والاقتصادية والثقافية، وبالتالي تسيطر على مفاصل تلك الدول.

وحتى تتمكن منظمات المجتمع المدني من القيام بدورها في تطوير التعليم بعيداً عن تغول الحكومة وهيمنة قوى العولمة يجب العمل على نشر الوعي والاعتراف بأهمية دور هذه المنظمات في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية المنشودة. كما ينبغي حث منظمات المجتمع المدني على نشر ثقافة التطوع والتعاون والوحدة من خلال الاستفادة من مراكز المعلومات والمراكز الثقافية والأندية الاجتماعية والرياضية. وهناك ضرورة للعمل المثابر لتطوير المؤسسات الاجتماعية التقليدية المتمثلة في القبيلة والعشيرة،

والعمل التدريجي في هذه الكيانات العريقة لبث المفاهيم الحضارية العصرية التي من شأنها إحلال الفكر الجمعي محل الفرقة والشتات. ولعله لمن الضروري أيضاً السعي لتقنين العلاقة بين منظمات المجتمع المدني والقطاعين الحكومي والخاص.

دور الشراكة بين الحكومة والقطاع الخاص ومنظمات المجتمع المدني في تعزيز التعليم الأهلي:

تفيد تجربة العقود الثلاثة الماضية في قطاع التعليم وما شابها من محدودية الموارد الحكومية الموجهة للتعليم، وما صاحب ذلك من انتشار التعليم الخاص باهظ التكاليف، أن هناك حاجة ماسة للتعاون بين الحكومة والقطاع الخاص والمجتمع المدني، سيما وأن التجربة الماضية قد أثبتت صعوبة بلوغ الغايات المأمولة في غياب ذلك التعاون الوثيق. ذلك أن التعاون بين هذه الأطراف الثلاثة في مجالات المعلومات والتمويل يتيح توسيع قاعدة المشاركة الشعبية في الجهود المبذولة للارتقاء بالخدمات التعليمية وتوفيرها بالجودة اللازمة لجميع مكونات المجتمع. وحتى تقوم هذه الشراكة على أساس متين ينبغي مراعاة الأطراف المعنية لمبادئ الانفتاح والشراكة والمحاسبة والفاعلية والتماسك. وتمثل هذه المبادئ السلاح الماضي لمجابهة التحديات التي تواجه الشراكة التي تشمل ضعف الثقة بين الأطراف المعنية وسوء الفهم للأدوار والأدوار المشتركة والتوقعات الخاطئة لما يمكن أن تقدمه كل الأطراف. كما تشمل هذه التحديات مفهوم الملكية وإطار التمثيل وحدود التفويض الذي سيمنح لمختلف الأطراف.

التعليم الأهلي والتعليم المجتمعي

يمثل التعليم المجتمعي وفقاً لتعريف الأمم المتحدة العمليات التعليمية الرامية لتوحيد جهود الأهالي والسلطات الحكومية للارتقاء بالتعليم بهدف تحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وينطوي ذلك على مشاركة واسعة النطاق وتضافر الجهود المشتركة لدعم العلاقة التعاونية بين المجتمع والأجهزة الحكومية تحقيقاً لزيادة فرص إنجاز تحسين جودة التعليم. ويتطلب ذلك التوسع في إشراك تنظيمات المجتمع المحلي بما فيها المنظمات الأهلية والمؤسسات غير الربحية والأفراد. وحتى تتحقق الشراكة الحقيقية بين الحكومة والقطاع الخاص من أجل النهوض بالتعليم ينبغي الإدراك أن التعليم قضية قومية تحتاج إلى دعم ومساندة كافة قطاعات المجتمع تحقيقاً للامركزية إدارة النظام التعليمي. ويأتي في مقدمة المشاركة المجتمعية في تخطيط وإدارة العملية التعليمية الدور الفاعل للأباء وأولياء الأمور. ويشمل هذا الدور دراسة المشكلات التعليمية والمساهمة في حلها عن طريق التوعية، والمساعدة في تصميم البرامج التعليمية وتوفير المعينات اللازمة لتنفيذها، ونشر الوعي الصحي في المدرسة والمجتمع المحلي، ورعاية الطلاب الموهوبين، والمساهمة في إنشاء المدارس التقليدية والمدارس المجتمعية. وحتى تتحقق الطفرة المنشودة في التعليم ينبغي وضع وتنفيذ إستراتيجيات وآليات مدروسة تضمن عدم حصر مشاركة مكونات المجتمع في المساهمات المادية فحسب، بل يجب أن تشمل أيضاً المساهمة في التخطيط والتنفيذ والإدارة. كما ينبغي أن تتم هذه المشاركة عبر فرق عمل متخصصة تشمل أولياء أمور الطلاب والعاملين في قطاع التعليم وتنظيمات المجتمع المدني. ومن ناحية أخرى يجب التخلي عن المركزية المالية والإدارية ومنح الإدارات المدرسية الصلاحيات الكفيلة بتعزيز دورها في تكوين شراكة حقيقية بين الإدارة الحكومية للتعليم ومؤسسات المجتمع المختلفة. وتشمل هذه الصلاحيات الانفتاح على المجتمع بفتح برامج تدريبية للمعلمين وفصول تدريب

السكان المحليين وترميم المنشآت وتجهيز المعامل والمختبرات وكافة المعينات التعليمية بما يحقق دمج المدرسة في المجتمع.

وكما هو معلوم، فإن الجهود التعليمية الحكومية في عهد الاستعمار كانت تقتصر على خدمة أهداف المستعمر، حتى انبرى القائمون على التعليم الأهلي من ناشطين وتجار وأهالي لتأسيس المدارس الأهلية الوطنية التي نشرت الوعي لمقاومة أهداف المستعمر التعليمية. وبعد تحقيق الاستقلال لم تتمكن الحكومات المتعاقبة، سيما في العقود الثلاثة الأخيرة، من الاضطلاع بالدور المنوط بها في تحقيق الجودة الشاملة في التعليم خاصة مع تفاقم التحديات المصاحبة للعولمة. وعليه صار لزاماً إفساح المجال واسعاً للمشاركة الحقيقية لتنظيمات المجتمع المدني في تحقيق النهضة التعليمية المنشودة.

التعليم الأهلي والمدارس المجتمعية

تعرف المدرسة المجتمعية بأنها المكان الذي يضم مجموعة من الشراكات بين المدرسة والموارد المجتمعية الأخرى. وتركز المدرسة المجتمعية تركيزاً متكاملاً على الجوانب الأكاديمية والصحية والخدمات الاجتماعية، والشباب وتنمية المجتمع وإشراك المجتمع المحلي بما يؤدي إلى تحسين تعلم الطلاب وتقوية الرباط الأسري وتنمية المجتمع. وتوفر المدارس المجتمعية المناهج الموجهة نحو القضايا الفعلية التي تواجه المجتمع، وتساهم في حل مشكلاته مما يجعلها مركز استنارة في المجتمع المحلي بانفتاحها أمام جميع مكوناته طول اليوم وطيلة أيام الأسبوع وخلال العطلات. وتستقطب المدارس المجتمعية العديد من الشركاء لتقديم الدعم وخلق الفرص للأطفال والشباب والأسر للمساهمة في تطوير المجتمع. ويعمل هؤلاء الشركاء بانسجام لتحقيق النجاح للطلاب وهم يتمتعون بصحة جيدة يدعمها التوازن الجسدي والاجتماعي والعاطفي.

ومن هذا المنطلق هناك ضرورة ملحة لأن تتبنى السلطة المركزية بالتعاون مع تنظيمات المجتمع المدني مشروعاً قومياً لإطلاق المدارس المجتمعية كمرافق تعليمية فريدة وتعميمها في كافة أرجاء البلاد لاستعادة الترابط الأسري والتلاحم المجتمعي التلقائي الخالي من شوائب الغرض والمكاسب الذاتية. وتكتسب المدارس المجتمعية أهمية أكبر في السودان حيث شهدت العقود الثلاثة الماضية انحسار العمل المجتمعي التطوعي الذي يشحذه الانتماء للوطن، مما أفسح المجال لطغيان الاعتبارات السياسية والقبلية الضيقة، وبالتالي تراجع دور المدرسة كمرافق تعليمي مجتمعي حقيقي تتكامل فيه الأدوار لإعداد أجيال المستقبل المشبعين بالانتماء المستنير لمجتمعاتهم المحلية ووطنهم الكبير. وتتأكد الضرورة الملحة لإطلاق المدارس المجتمعية في السودان نظراً لانحسار الشعور بالمسؤولية الوطنية لدى الشباب كانعكاس لاندفاع عدد كبير من كبار المسؤولين خلال العقود الثلاثة الماضية لاستغلال المناصب لتحقيق مكاسب شخصية وفئوية ضيقة، مما أثر سلباً على روح المسؤولية تجاه المجتمع والوطن لدى الطلاب

والشباب. ومن ثم فإن المدارس المجتمعية بما تنطوي عليه من نشر ثقافة التطوع لدى الطلاب تمثل النواة الواعدة لتحقيق التغيير الجذري في المنهج التعليمي السائد. ذلك أن العمل التطوعي يلعب دوراً مهماً في تنمية شخصية الطالب من خلال المساهمة في دعم التكوين الاجتماعي وخدمة الوطن. وذلك فضلاً عن إكسابه جملة من المهارات، والمعارف، والقيم النبيلة المرتبطة بأفعال الخير للمجتمع والوطن.

نحو مساهمة فاعلة للتعليم الأهلي في تحقيق الجودة التعليمية الشاملة

يتمتع التعليم الأهلي في السودان بموروثات تاريخية وتربوية وتعليمية راسخة

منذ تأسيسه بواسطة الشيخ الطاهر الشبلي في عام 1912م. فإلى جانب دوره المشهود في غرس الشعور الوطني ضد المستعمر في أوساط السودانيين وتعبئتهم لنيل الاستقلال تحت زعامة تلميذه إسماعيل الأزهرى، فقد ساهم التعليم الأهلي جوهرياً في نشر الوعي اللازم لتأسيس الدولة السودانية الحديثة. وعلى الرغم من الضغوط الخارجية والداخلية التي تعرض لها التعليم الأهلي خلال العقود الثلاثة الماضية من انعكاسات العولمة من ناحية والسياسات الحكومية من الناحية الأخرى، فهناك العديد من الأدوار المهمة التي يمكن للتعليم الأهلي الاضطلاع بها لإصلاح العملية التعليمية في السودان بتحقيق الجودة الشاملة توطئة لبلوغ التغيير الاقتصادي والاجتماعي المنشود.

وكما هو معلوم، فإن مفهوم الجودة الشاملة في مجالات الصناعة وإدارة الأعمال قد بدأ الاهتمام به في مطلع تسعينات القرن العشرين مصاحباً لاندياح مفهوم العولمة. ولكن ما لبث أن أخذ الاهتمام بهذا المفهوم ينتشر في المجالات الأخرى، بما فيها مجال التعليم. فقد شهدت العقود الثلاثة الماضية تعاظم الاهتمام بالجودة الشاملة في التعليم باعتبارها مرتكزاً أساسياً لتحقيق الإدارة التربوية والتعليمية العصرية التي تمكن من مساندة المتغيرات الهائلة على كافة الصعد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية والتكنولوجية وتهيئ البيئة الملائمة التي تمكن المعلم والمتعلم من التفاعل الديناميكي مع التطورات المتلاحقة التي تكتنف المحيط المحلي والعالمي. ويقصد بإدارة الجود الشاملة في المجال التربوي التعليمي اتباع أسلوب متسق يشمل مجموعة من المعايير التربوية الضرورية تضعه مجموعة متناسقة من الشركاء لرفع مستوى جودة المخرجات التعليمية بأعلى درجات الكفاءة والكفاية والإبداع لتلبية احتياجات سوق العمل العصري من القدرات البشرية المؤهلة التي تمكن من تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الاجتماعي.

ولعل المتتبع لمدخلات ومخرجات التعليم في السودان خلال الفترة سابقة الذكر يلحظ أنه على الرغم من التوسع الكمي في المواعين التعليمية، إلا أن هناك العديد من التحديات الأكاديمية والإدارية لا زالت تحد من قدرة الإدارة التعليمية من أداء الرسالة المنوطة بها نظراً لغياب الرؤية الشاملة والنظرة الاستراتيجية الشمولية لدور التعليم في تحقيق الغايات التنموية المأمولة، مما نتج عنه تضارب وظائف مؤسسات التعليم وازدواجيتها، وبطء عمليات التطوير والإبداع، وضعف آليات منظومة العمل الإداري والأكاديمي والتربوي، مع تصاعد وتيرة التدهور النوعي البائن لمخرجات التعليم. وقد تجسدت التحديات والإخفاقات في المنظومة التعليمية والتربوية في بلوغ نسبة الاستيعاب في التعليم الأساسي 54% فقط مما يعني أن 46% من أطفال السودان خارج المدارس وذلك فضلاً عن اختلال توازن فرص التعليم بين المناطق والأقاليم المختلفة. كما أن تلك الفترة قد شهدت انحيازاً في الفرص التعليمية لمصلحة الأغنياء على حساب الفقراء والذكور على حساب الإناث والحضر على حساب الريف. ومن ناحية أخرى فقد تفاقمت مشكلة التسرب والفاقد التعليمي والتربوي حيث بلغت نسبته نحو 15% في الفصول العليا و9% في الفصول الدنيا. ويعني ذلك أن نسبة التلاميذ الذين يكملون مرحلة التعليم الأساسي لا تتجاوز 65%، وتتدنى هذه النسبة في الريف لنحو 60%. ولعل مما فاقم من هذه التحديات إيكال مسؤوليات التعليم الأساسي للمحليات العاجزة عن الإيفاء بالالتزامات التمويلية التي تمكنها من القيام بهذا الدور المهم¹.

وفوق كل ذلك فقد شهدت الفترة الممتدة من مطلع تسعينات القرن الماضي عزلة تامة للتعليم عن التطورات المعلوماتية والتقنية الهائلة التي انتظمت العالم خلال تلك الفترة. وقد ساعد على تلك العزلة الممارسة الانكفائية التي طغت على السياسات

¹ عبدالرحمن الحلاوي "آين نحن من مفهوم الجودة الشاملة؟"

<http://www.campaignforeducation.org/ar/about-us/about-education-for-all>

التعليمية خلال تلك الفترة. وتجسد ذلك في إهمال إتقان اللغة العربية والتقاعس في تعلم اللغات الأجنبية خاصة الإنجليزية، مما أفقد الطلاب السودانيين سمة مهمة كانت تميزهم على غيرهم من الدول العربية. وذلك فضلاً عن إفساح المجال لتحويل التعليم إلى مصدر للتربح غير المرشد.

وحتى تتحقق الغاية المنشودة من الجودة الشاملة في التعليم ينبغي وضع ومتابعة تنفيذ استراتيجية مدروسة تنطوي على رؤية ورسالة وأهداف محددة تتم متابعة تنفيذها دورياً. وتركز هذه الاستراتيجية على جملة من المحاور على رأسها محور الطلاب باعتبارهم المنتج التعليمي والتربوي نظراً لأن بناء قدراتهم العلمية والتربوية تمثل غاية أساسية لعملية الجودة الشاملة في التعلم بما يتناسب مع متطلبات المجتمع المحلي والعالمي. وحتى يتحقق هذا الهدف ينبغي تركيز الاهتمام أيضاً على تحفيز المعلمين نظراً لدورهم الأساسي في تعليم وتربية الأجيال القادمة بأحدث الأساليب العصرية. كما ينبغي أيضاً تنسيق الجهود بين شركاء العملية التعليمية في وضع المناهج والمقررات التي تواكب التطورات العالمية وتكفل تحقيق الأهداف المنشودة. وحتى يتحقق مبدأ الجودة الشاملة لابد من الاهتمام الكبير بالمدرسة بخلق البيئة الملائمة ومدها بكافة المعينات المعنوية والمادية التي تمكنها من لعب دورها المنشود في التفاعل الإيجابي مع مجتمعها المحلي وتكوين قادة المستقبل. وحتى تتحقق هذه الغايات القومية لابد من إيكال الإشراف على العملية التعليمية لإدارة تعليمية قومية تنأى عن الارتباطات الأيديولوجية والحزبية الضيقة. كما ينبغي بذل كل الجهود لتوفير الاحتياجات المالية لهذه الإدارة التعليمية القومية حتى تضطلع بدورها على الوجه الأكمل.

منحة التعليم الأهلي ومنحة التسييس والأدلة

تعرض التعليم في السودان في خواتيم القرن العشرين لمنحة غير مسبقة صاحبت التسييس والأدلة التي انتهجتها السلطات التعليمية في إطار ما يعرف بالتمكين الذي طغى على سياسات الدولة للانفراد بالحكم. وقد أدت تلك السياسات إلى هدم المبادئ القومية التي أسسها التعليم الأهلي في السودان وساهمت في تحقيق استقلال البلاد ووضع الأسس الراسخة للحكم الوطني. وقد شهدت نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين التطبيق الانفرادي للتوجهات الأيديولوجية للسلطة الحاكمة على نظام التعليم. ولعل من أبرز سمات هذه السياسات التعليمية الفوقية إقصاء وتهميش الكفاءات التعليمية الوطنية المتمرسه وتمكين كوادر حزبية محدودة الرؤية وانعزالية الفكر وانكفائية التوجه. وقد أدت السياسات التعليمية لهذه الكوادر الحزبية في حصر مفهوم تطوير التعليم في التوسع في قيام المدارس والجامعات غير المؤهلة وحشد ملايين الطلاب فيها دون الاكتراث لمدهم بالمعينات العصرية الضرورية لتحقيق النهضة التعليمية المنشودة. وصاحب ذلك فشل ذريع في تطوير المناهج الدراسية والانفتاح على العالم الخارجي لمواكبة التطورات التقنية الهائلة في الوسائل والمعينات التعليمية. ولعل من أبرز سمات خطط السياسات التعليمية الفشل في مراعاة التوازن في مجالات المعارف المختلفة والعلوم التطبيقية والإنسانية وفق ما تقتضيه ضرورات تحقيق النهضة المجتمعية الشاملة من إعداد وتوفير المبدعين والمفكرين في كافة المجالات. كما تجلّى خطئ السياسات التعليمية في إهمال التوازن بين المخرجات النوعية والكمية للتعليم مما أدى لتراكم مخرجات هائلة كمياً ولكنها تعاني من ضعف نوعي مذر. وقد فاقم من الآثار الوخيمة لهذه المخرجات التعليمية الرخوة نوعياً والهشة معنوياً انتقال البلاء مضاعفاً للتعليم العالي بانتشار المعاهد العليا والجامعات ضعيفة التأهيل الأكاديمي والأخلاقي مما أسهم في شيوع الحصول على أعلى الشهادات والدرجات العلمية الرفيعة من بعض هذه المؤسسات التعليمية العليا في إطار أدلة وتسييس التعليم وتمكين الحكم.

وفي إطار الجهود المبذولة للتغلب على الإخفاقات البائنة المترتبة على أدلة وتسييس التعليم، يمكن للتعليم الأهلي لعب دور بارز في السعي لاستعادة المكانة المرموقة للتعليم في السودان وتحقيق الجودة الشاملة في التعليم مستنداً إلى مساهماته التاريخية الرائدة. ذلك أن التعليم الأهلي يتمتع بمرونة وحركية تمكنه من التنسيق بين كافة الشركاء في العملية التعليمية بما في ذلك الحكومات الاتحادية والولائية وتنظيمات المجتمع المدني ومجالس الآباء واتحادات الطلاب والمنظمات الدولية ذات الصلة. ويهدف هذا العمل المشترك لتحقيق الجودة التعليمية باعتبارها سمة من سمات العصر الحديث، والاستغلال الأمثل للموارد البشرية والمادية المتاحة لتكوين أجيال مستقبلية عالية التأهيل لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المنشودة. ومن خلال هذا المفهوم التشاركي المستند إلى الاعتبارات القومية الحققة والنائية عن المكاسب الحزبية والفئوية الضيقة، يمكن للتعليم الأهلي استنهاض المضامين التعليمية والتربوية لمؤسساته التاريخية المسلوقة، وعلى رأسها مدرسة الهداية التي أسسها الرائد الأول للتعليم الأهلي في السودان، الشيخ الطاهر الشبلي. ومن ثم يتواصل العطاء التاريخي للتعليم الأهلي في السودان الذي تجلّى في دوره الفاعل في انجاز الاستقلال الوطني ونهضة البيئة الصالحة لتحقيق النهضة القومية الشاملة.

ردمك 978-99942-0-837-1 ISBN:

رقم الايداع 2017 /1189

البروفيسور/ مكي مدني الطاهر الشبلي



- ولد بحي السيد المكي بأم درمان، وتلقى تعليمه بمدرسة الهداية الأولية وحي العرب الوسطى والأهلية الثانوية بأم درمان.
- حصل على درجة البكالوريوس في الإقتصاد بمرتبة الشرف الدرجة الأولى من جامعة الخرطوم، وعلى الماجستير في الإقتصاد من جامعة مانشستر بإنجلترا، ثم الدكتوراه في الإقتصاد من جامعة كنت بإنجلترا. كما حصل على درجة الماجستير في الإدارة العامة من كلية كينيدي بجامعة هارفارد، وشهادة برنامج الضريبة العالمي من كلية هارفارد للقانون بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية.
- عمل مديراً لجامعة أم درمان الأهلية، ووكيلاً لجامعة العلوم الطبية والتكنولوجيا، حيث عمل فيها أيضاً عميداً لمؤسسة كلية الدراسات الإقتصادية والإجتماعية والبيئية، ومديراً مؤسساً لمعهد السودان الإنمائي، ونائباً لمدير معهد السودان للتعليم والإنماء، وساهم جوهرياً في تأسيس كلية القانون.
- عضو مجلس إدارة بنك البركة السوداني.
- عضو مجلس إدارة مركز مامون بحيري للدراسات والبحوث الإقتصادية والإجتماعية في أفريقيا.
- عمل في المنظمة العربية للتنمية الزراعية مديراً لإدارة الأمن الغذائي والتكامل الزراعي، ومديراً لإدارة التعاون الدولي.
- عمل في الهيئة العربية للاستثمار والإنماء الزراعي رئيساً لقسم حوض النيل والمغرب العربي.
- عمل في المصرف العربي للتنمية الإقتصادية في أفريقيا، مساعداً لمدير دائرة العمليات، ورئيساً لقسم الدراسات، وكبير الإقتصاديين.
- عمل في جامعة الخرطوم محاضراً في كلية الدراسات الإقتصادية والإجتماعية، ومديراً مساعداً لمركز الدراسات والبحوث الإنمائية، ورئيساً لتحرير المجلة المحكمة التي تصدر عن كلية الإقتصاد (Sudan Journal of Economic and Social Studies).
- عمل مساعداً للتدريس في علم الإقتصاد بجامعة كنت بإنجلترا.
- عمل ضابطاً مالياً بوزارة المالية والإقتصاد الوطني بالسودان.
- عمل استشارياً حراً مترشفاً للعديد من فرق العمل لإعداد دراسات الجدوى والإستراتيجيات للمنظمات الدولية والإقليمية والسودانية.

من مؤلفاته:

- الفيدرالية المالية في السودان.
- الأمن الغذائي العربي الإفريقي - الواقع والتصورات المستقبلية.
- تقييم نظام التحويلات المالية بين المركز والولايات في السودان.
- إعادة هيكلة التحويلات المالية بين الحكومات في بلد إفريقي في مرحلة الانتقال.
- تقييم مناخ الاستثمار وتبسيط الإجراءات في أربع ولايات رائدة في السودان.
- العديد من المؤلفات الأخرى المنشورة في المجالات العلمية العالمية والمحلية.

مطبوعة جامعة العلوم الطبية والتكنولوجيا

ردمك ISBN:978 -99942- 0- 837-1

رقم الإيداع 2017 / 1189